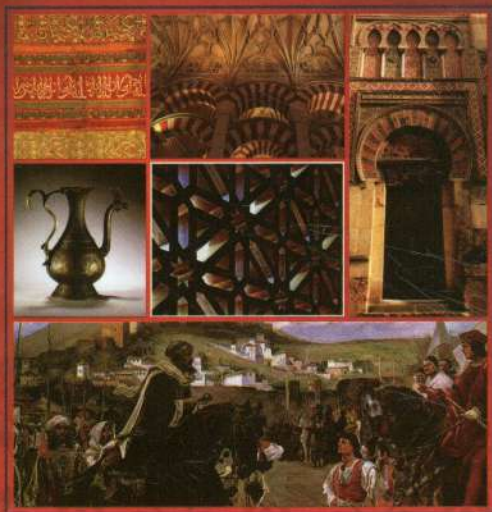


العصر الأندلسي

تاريخ و حضارة الأندلس

النظم الإدارية في إشبانيا الإسلامية



البروفيسور / محمد حسن العيدير من

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية - رئيس مركز العيدير من للدراسات والأبحاث



دار العيڊروس للكتاب الحديث
موسوعة أسبانيا الإسلامية

العصر الأندلسي

تاريخ وحضارة الأندلس

النظم الإدارية في إسبانيا الإسلامية

البروفيسور / محمد حسن العيڊروس
أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية -
رئيس مركز العيڊروس للدراسات والاستشارات

العبدروس ، محمد حسن .	
موسوعة أسبانيا الإسلامية/ محمد حسن العبدروس	
ط 1. - القاهرة: دار الكتاب الحديث ، 2011	
158 ص 24 سم .	
تدمك 978 977 350 449 2	
1- الأندلس - تاريخ - نظم إدارية - موسوعات .	
أ- العنوان.	
953.071203	

رقم الإيداع 2011/ 21012

حقوق الطبع محفوظة

1433 هـ / 2012 م



دار الكتاب الحديث

www.dkhbooks.com

94 شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة ص ب 7579 البريدي 11762 هاتف رقم : 22752990 (00 202) فاكس رقم : 22752992 (00 202) بريد إلكتروني : dkh_cairo@yahoo.com	القاهرة
شارع الهادي ، برج الصديق ص ب : 22754 - 13088 الصفاء هاتف رقم 2460634 (00 965) فاكس رقم : 2460628 (00 965) بريد إلكتروني : ktbhades@ncc.mcc.kw	الكويت
B. P. No 061 - Draria Wilaya d'Alger- Lot C no 34 - Draria Tel&Fax(21)353055 Tel(21)354105 E-mail dk.hadith@yahoo.fr	الجزائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾ [التوبة]. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (١١)﴾ [الرعد]. ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلَهَا بَيْنَ النَّاسِ (١١٠)﴾ [آل عمران]. ﴿وَلَنْ تَسْلُكُوا يَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٢٨)﴾ [محمد]. ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾ [آل عمران]. ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ (١٢٠)﴾ [البقرة]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٤)﴾ [النساء].

إهداء

إلى كل من دافع عن أرض الإسلام والمسلمين في وجه الأعداء الطامعين والمحتلين لأراضيها... إلى الذين قاوموا وكافحوا وقدموا أرواحهم في سبيل الله وفي سبيل الإسلام والمسلمين ضد الاستعمار المسيحي البريطاني والفرنسي والإسباني والأمريكي. إلى الأتراك العثمانيين الذين أوقفوا الزحف المسيحي الصليبي لديار المسلمين أكثر من ستة قرون. وإلى الذين جاهدوا واستشهدوا وسقطوا جرحى دفاعاً عن كرامة الإسلام والمسلمين. وإلى كل من يدافع عن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس بكل الوسائل المتاحة سواء بالسلاح أو بالقلم أو بالدعوة الحسنة حاضراً ومستقبلاً.

واهدهاء إلى والدي المرحوم السيد الشريف/

حسن أحمد علوي العيدروس

والذي علمني بأن كرامة الأمة الإسلامية والإسلام هي أعلى ما في الإنسان، ويدونها لا وجود للإنسان وللحياة الكريمة.

أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يطيب ثراه

ويغمده الجنة إن شاء الله..

الفاتحة

إلى أرواح شهداء الإسلام والمسلمين الذين سقطوا دفاعاً عن الإسلام والمسلمين من عهد الدولة الإسلامية الأولى في عهد الرسول والخلافة الراشدة والأموية والعباسية والفاطمية والعثمانية حتى اليوم والغد وإلى يوم الدين»

رسالة الإسلام والسلام

مقدمة

من أجل الحوار السليم والسلام بين المسلمين والمسيحيين في العالم والتعايش السلمي بين الأديان، وليعرف الأوروبيون والغربيون المسيحيون كيف كان لمسلمي صقلية وإسبانيا والدولة العثمانية روح التسامح وحرية التعبير وممارسة المذاهب الدينية لغير المسلمين في ظل الحكم الإسلامي، وكيف يعامل الأوروبيون الذين يدعون حقوق الإنسان وحرية الأديان للأقلية المسلمة في أوروبا؟ فكيف سبقهم المسلمون إلى ذلك قبل عدة قرون، في الوقت الذي تعاني الأقلية الإسلامية من اضطهاد في ممارسة المعتقد الخاص بهم، وحرية اختيار الملابس وممارسة الشعائر الدينية. إلى كل المسلمين ليعرفوا، كيف كان أجدادهم بناء حضارة وقدموا للبشرية أروع النظم والحياة الإنسانية في أوروبا في العصور الوسطى، وكيف ساهموا في إثراء وتطور العالم الإنساني. أين هم الآن من ذلك؟! لماذا أصبحوا متلقين بعدما كانوا ملقّنين؟ لأصبحوا يأخذون من كل شيء إيجابي وسلبى دون تمييز بعدما كانوا يعطوا أعظم القيم العليا الإنسانية والعلمية إلى العالم. وليعرف العالم المذابح ضد الإنسان والإنسانية والتطهير العرقي، وجرائم حرب الإبادة البشرية والإرهاب المنظم للدولة الذي ارتكبه المسيحيون في إسبانيا وصقلية وجنوب إيطاليا والحروب الصليبية في سواحل سوريا ولبنان وفلسطين والرها وأنطاكية وبلغاريا والبوسنة وكوسوفو وصربا وشاتيل وجسر الباشا وتل الزعتر والشيشان وأبخازيا وجزيرة القرم والعراق وأفغانستان ضد المسلمين، وكيف عامل المسلمون المسيحيين في

إسبانيا وصقلية والدولة العثمانية، وكيف يعاملون في سوريا ومصر ولبنان وإندونيسيا ونيجييريا وغيرها من الدول الإسلامية. هناك فرق كبير بين التسامح لدى المسلمين والإسلام وغيرهم.

الحمد لله والصلاة والسلام على هادي البشرية من الضلال والشرك إلى الهدى والهداية سيدنا وحبيبنا وشقيقنا محمد رسول الله والصلاة والسلام على آل بيته الطاهرين.

سادت حضارات ثم بادت، نشوء وارتقاء ثم السقوط، تلك هي الظاهرة التاريخية التي تتكرر في عالم الإنسان الذي يحاول فهمها أو يفهمها، وإن فهمها ينساها أو يتناساها، في حين أن أمة الإسلام هي أمة التوحيد الوحيدة في العالم منذ خلق البشرية حتى اليوم وإلى أن يرثها الله، ومنهجها القرآن الكريم والسنة النبوية إلى يوم الدين، من تعلق بها نجا ومن تركها سقط وضاع وانتهى. ومن هنا يرتبط تفوق الإسلام وسيادة وعالمية الأمة الإسلامية بمدى تمسكها وتعلقها بهذا المنهج وهذه الرسالة البشرية التي أنزلها الله على الأمة الإسلامية عن طريق رسوله محمد ﷺ. يرتبط تكالب الأمم المشركة بالله وأعداء الإسلام والمسلمين من الصليبيين المسيحيين بابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام وتخليهم عن رسالة الجهاد والحفاظ على رسالة الإسلام وعقيدته وقيمه الإنسانية العالمية الخالدة وما مدى تطبيقه والحفاظ عليه. ومن هنا كان تفوق الحضارة الإسلامية في إسبانيا، وعندما ابتعد المسلمون عنها، ابتعد الله عنهم فسقطوا وانتهى ملكهم، وعندما طلب المسلمون العون والمساعدة من المشركين المسيحيين في إسبانيا ضد إخوانهم تركهم الله. وهذا ما أدى إلى ارتفاع قوة المسيحيين الصليبية بقيادة بابا الفاتيكان الذي أعلن الحرب الصليبية المسيحية على مسلمي إسبانيا قبل المشرق الإسلامي في سواحل الشام، وبذلك توافد آلاف المسيحيين من مختلف أنحاء أوروبا لقتل المسلمين في إسبانيا مما

أدى إلى سقوط آخر معاقلها في غرناطة ولم ينته إلى هذه الحدود وإنما امتد إلى احتلال المغرب العربي حتى ليبيا.

هنا أرسل الله عباده المجاهدين من الأتراك العثمانيين الذين قاموا بطرد الصليبيين المسيحيين والحفاظ على المغرب العربي والمساعدة في إجلاء المسلمين من إسبانيا. ولا ننسى ما قام به المسيحيون من التطهير العرقي والمذابح الجماعية ضد المسلمين في إسبانيا وحرقتهم وهم أحياء في احتفالات الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ البشري مثيل حتى قيام الأوروبيين المسيحيين الصرب بجرائم الإبادة البشرية والتطهير العرقي ضد المسلمين في البوسنة، أمام أنظار أوروبا والمغرب المسيحي الذي يدعي الحضارة وحرية الإنسان، بل قام الجيش الهولندي من قوات حفظ السلام بمساعدة الصرب في جرائمهم.

وفي الختام آخر دعوانا أن الحمد لله، وأن الأرض يرثها لعباده الصالحين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آل بيته الطاهرين،

البروفيسور الدكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ والعلاقات الدولية

التفكير السياسي في إسبانيا الإسلامية:

مرت الأندلس بفترات عصيبة عبر تاريخها الطويل، وقد أفرزت هذه الوضعية نمطاً خاصاً من التفكير السياسي هو وليد الظروف السياسية التي كانت تعيشها آنذاك، ذلك أن الوجود العربي الإسلامي هو نفسه الذي كان مهدداً، فالأمر إذن ليس مجرد رؤية سياسية حول علاقة الحاكم بالمحكوم، أو علاقة فئات اجتماعية مع بعضها البعض، إنه يتجاوز هذا بكثير.

إن الخطأ السياسي هنا يتحول بسرعة إلى جريمة سياسية تاريخية تضع صاحبها في قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ وبالتالي يصبح من واجب قادة الفكر التصدي لهذا الأمر بقوة، وذلك ببث الوعي ورسم منهاج سياسي واضح لأصحاب الشأن، ومن هنا تأتي أهمية الفكر السياسي الذي تركه هؤلاء، إذ لا يجب النظر إليه كتفكير سياسي مجرد يصلح في زمان ومكان، بل يجب أن نأخذ بعين الاعتبار هذا الجانب الخفي، خاصة وأن التساؤلات بدأت تطرح ويحده بعد سقوط آخر معقل إسلامي بالأندلس، إذ أصبح الأندلسيون أنفسهم - ومعهم العالم الإسلامي - يتساءلون: كيف سقطت الأندلس وهي تعج بالعلماء والأدباء والشعراء، كيف سقطت وهي في أبهى حلل الحضارة والرفق الاجتماعي؟ بمعنى آخر: هل انتبه قادة الفكر في الأندلس إلى أنها كانت تسير فعلاً نحو الانهيار والسقوط رغم ما كان يظهر عليها من معالم حضارية بارزة؟ هل أهمل حكام الأندلس صيحات مفكرينها بدعوى أنها غير واقعية؟ هل وهل؟.

كل هذه الأسئلة طرحت بحدّة، والأدهى من ذلك أنه بعد السقوط وبعد هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربي وضعوا أمام «محاكمات» فريدة من

نوعها، فقد كانوا يُتهمون باستمرار أن الأندلس ضاعت بسبب تعاونهم ولهوهم ومجونهم، وبالتالي فإن ما وقع لهم هو غضب من الله وعقاب طبيعي ضد أي فئة تهمل شؤون دينها، فكان على أندلسي المغرب أن يبحثوا في تاريخهم، وأن يبحثوا في إنتاج مفكرهم، ليقدموا لهم هذا الإنتاج كورقة دفاع أمام المغاربة، بمعنى أنهم جاهدوا وكابدوا، وأن ما حصل هو قدر من الله، وعلى كل سنحاول مقارنة هذا التفكير باختيار نماذج معينة متجاوزين الصراعات الفكرية والمذهبية التي كانت قائمة بالأندلس آنذاك، مكتفين بربط هذا التفكير بالواقع الساسي بإسبانيا الإسلامية بكامل مكوناته، ومركزين بالخصوص على الفترات العصبية، أي على الفترات التي بدأت فيها ملامح الأزمة تظهر بوضوح، وبالتالي بدأ هذا التفكير السياسي كرد فعل مباشر وسريع تجاه الأزمة. ترسخت المركزية السياسية في عصر الخلافة منذ إعلانها بقرطبة من طرف عبد الرحمن الناصر 316 هـ/ 928م إلى حين إلغائها 422 هـ/ 1031م، إذ نجح هذا الأخير في القضاء على التمزق السياسي وأعاد بسط قرطبة على أقاليم إسبانيا الإسلامية وثغورها. لكن بوفاة الحاكم المستنصر (366 هـ/ 976م) بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة الأموية، فلقد تمكن محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور من الحجز على الخليفة هشام الثاني، ونهج سياسة خاصة تجلّت بالخصوص من محاربة الفكر المستنير ومطاردة الفلاسفة والمعتزلة، وإتلاف ذخائر مكتبة الحاكم المستنصر الذائعة الصيت، كما فتحت أبواب الأندلس للقبائل البربرية المتطلعة إلى المزيد من النفوذ والسطوة، وقد استمرت الأوضاع في التدهور بعد ذلك مما عجل بانفجار الأوضاع بقرطبة على إثر ثورة العامة وإسقاط الحجابة العامرية 399 هـ/ 1009 م، وتعتبر هذه الثورة التي حركها الباعة والحرفيون إحدى أكبر وأهم الثورات في العصور الوسطى. ويعد عجز الجميع من إيجاد حل لهذه الأزمة ويأسهم من

إمكانية التعايش في ظل نظام العلاقة اتفق الرأي بقرطبة على إلغائه، وكان ذلك إيذاناً ببداية عصر الطوائف.

ستعرف إسبانيا الإسلامية في عصر الطوائف انقسامًا سياسيًا خطيرًا لم يعرف له مثيلاً من قبل، يقول ابن الخطيب في هذا الصدد: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق، والانشعاب، والافتراق، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب، والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسة نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء. وهكذا فقد تصارع ملوك الطوائف فيما بينهم، وإرداد الخطر العسكري المسيحي من الشمال حيث توج ذلك باحتلال ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلة 478 هـ/ 1085 م، وكان لهذا الاحتلال نتائج سياسية خطيرة، فقد وضع حدًا لسياسة التعايش مع ملوك الطوائف، وأصبح يعتبر نفسه حاكماً شرعياً لإسبانيا الإسلامية كلها، إذ اقتنع بوجوب إخضاع الدول الطائفية الأخرى. والجدير بالذكر أن علماء إسبانيا الإسلامية لم يكونوا بمنأى عن هذه الأوضاع، فقد ارتفعت الأصوات بالدعوة إلى الاتحاد، وكان على رأس هؤلاء الفقيه أبي الوليد الباجي (403 - 474 هـ) الذي طاف في مدي إسبانيا الإسلامية وقواعدها يحث الناس على جمع الكلمة ووحدة الصف. وهناك عالم آخر عبر بوضوح وبقوة عن انتقاده لهذه الوضعية وهو ابن حزم. يقول ابن حزم في هذا الصدد: «وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملابس الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض، فهذا أمر

امتحننا به، نسأل الله السلامة. وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله وسعى في الأرض بفساده الذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجبهة التي يقفون على أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلمون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استخدام نفاذ أمرهم ونهيهم فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون على فسقهم، فالخلص لنا فيها الإمساك للأنسة جملة واحدة إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذم جميعهم، فمن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه، وما أدري كيف هذا، فلو اجتمع كل من ينكر هذا بقلبه لما غلبوا. وهكذا نلاحظ من خلال هذا النص موقف ابن حزم من الفتنة ومن ملوك الطوائف إذ يعتبرهم مجرد مغتصبين ومفسدين في الأرض، لأن الفتنة في الأندلس تتخذ بعداً أكثر خطورة، فهي ليست مجرد فتنة عابرة، بل إنها بداية اقتراب سقوط الحضارة العربية الإسلامية بإسبانيا الإسلامية، من هنا نفهم سبب تشبيه ابن حزم بالخلافة الأموية بإسبانيا الإسلامية ودفاعه عنها، لأنها خلافة وحدت البلد، ولأن سقوطها كان بداية لسقوط الوجود الإسلامي بها، ويقول عن ذلك: «لما كانت الخلافة من الله على منهاج رسوله، وإقامة شرائع دينه، احتاج الناس إلى من يقوم فيهم مقام نبيهم ﷺ لتألف برهسته الأهواء المختلفة وتمتصع بهيسته القلوب المتفرقة، وتنكف بسطوته الأيدي المتغالب، وتنقمع من خوفه

النفوس المعاندة، لأن في طباع البشر من حب المغالبة والقهر، ما لا يتكفون عنه إلا بمانع قوي، وراذع كفي، فلما تحقق بذلك الصحابة والمؤمنون، واجتمع على الأخذ به العقلاء والمسلمون لم يكن بد من اجتماع على إمام يحفظ الدين، من غير تبديل أو زيادة عليه أو نقص منه، ويحث على العمل به من غير إهمال له، ويذب عن الأمة من عدو في الدين وعمارة البلدان باعتماد مصالحها وتمهيد سبلها ومساكنها، وتنفيذ من يتولاه المسلمون من الأموال بسنن الدين من غير اعتساف في أخذها وإعطائها، ومعاناة المظالم، والأحكام بالتسوية بين أهلها، واعتماد النصفة في فضلها، وإقامة حدود الله على مستحقيها من غير تجاوز فيها، ولا تقصير عنها.

واجبات الخليفة حسب ابن حزم:

أورد ابن حزم هذه الواجبات في كتاب السياسة والجدير بالذكر أن الأفكار الواردة في هذا الكتاب مستمدة أساساً من الواقع المتمزق الذي كانت تعيشه الأندلس آنذاك، سواء على الصعيد الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، لذلك لا غرابة أن نجد في تقديم النصح هو السمة الغالبة، فهو ما يفتأ يبحث الإمام على انتقاء الوزير اللائق وعلى مشاوره أصحابه وولاة جنده وأن يشجع العمارة والفلاحة. وعلى كل فإنه يلخص أفكاره في أشياء محددة:

- 1 - «حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، وأن نجم مبتدع فيه أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب، وأخذ به بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل، والأمة ممنوعة من الزلل».
- 2 - «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم، ولا يضعف مظلوم».

3 - «الحماية والذب عن الحرم، لتصرف الناس في المعاش، وينشرون في الأسفار آمنين من تغيير بنفس أو مال». 4 - «إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن انتهاك، وتحفظ الأمة عن إتلاف واستهلاك». 5 - «تخصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة، حتى لا يظفر الأعداء بغرة، يتهكون بها محرماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا». 6 - «جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم، أو يدخل في الذمة ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله». 7 - جباية الفيء والصدقات، على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً». 8 - «تقدير العطاء، وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقصير ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير». 9 - «استكفاء الأمناء، وتقليد النصحاء، فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكل إليهم من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محوطة». 10 - «أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور، وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة، وحراسة الملة».

إنه في تقديمه لهذه النصائح كان يستجيب للحاجة التاريخية بإسبانيا الإسلامية بعدما كثرت المؤامرات داخل البلاط، وادعاء الحجاب التكلم باسم الخليفة الذي لا يراه أحد، إنها نصائح لا تفهم إلا انطلاقاً من خبراته في الحياة في فترة معينة تقلد فيها مناصب سياسية هامة في الدولة وخبر فيها أمور البلاط. إن القواعد التي سعى ابن حزم في تحقيقها معارضة صريحة وعلنية ضد ملوك الطوائف، فكل قاعدة منها هو اتهام علني ضدهم:

- فهو يدعو إلى أصالة الدين ووحدته باعتبارها أساساً وحدة الأمة لأن في ظهور البدعة والاختلاف ابتعاداً عن الحقيقة، والابتعاد عن الحقيقة يؤدي حتماً إلى الفتنة. - وهو يدعو إلى إقامة العدل والأمن للرعية، خاصة وهو

على علم بما كان يقع؛ نتيجة انصراف ملوك الطوائف عن ذلك واشتغالهم بمسائلهم الخاصة. - وهو يدعو إلى تحصين الشغور وإلى الجهاد لعلمه بتخاذل ملوك الطوائف، بل وتحالفهم مع ألفونس السادس ودفعهم له الجزية. - وهو يشير كذلك إلى ضرورة جباية الضرائب الشرعية فقط، لعلمه أن ملوك الطوائف فرضوا ضرائب غير شرعية وثقيلة على رعاياهم مما كان يؤدي إلى ثورتهم باستمرار. - وأخيرا ينهي قواعده بالتأكيد على ضرورة اختيار أطر الدولة الأكفاء، لعلمه أيضا بالطريقة التي كان يختار بها المشولون عن تسيير دواليب الدولة⁽¹⁾.

لم يعيش ابن حزم لي شاهد علماء إسبانيا الإسلامية يتبعون أفكاره فيما يتعلق بمعارضته للملوك الطوائف، كما لم يعيش ليرى إعادة توحيد إسبانيا الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين، بعد معركة الزلاقة التي شارك فيها علماء الأندلس أنفسهم. سنجد علماء إسبانيا الإسلامية آخرين بعد ابن حزم في المراحل الموالية (المرابطة والموحدية) وابعين كل الوعي بخطورة الموقف، وهنا نشير إلى أنهم كانوا على إلمام تام بضرورة تماسك الجبهة الداخلية لمواجهة الأخطار الخارجية، وستعطي كمنوذج لذلك ابن رشد.

لا تخفى أهمية ابن رشد كفيلسوف شهد بعبقريته الجميع، لكننا سنتناول بالدرس ابن رشد المفكر السياسي، خاصة وأن اهتمامه معروف بقضايا مجتمعه، إذ أن كل الذين تحدثوا عنه اعترفوا بأنه كان في خدمة قومه، فابن عبد الملك المراكشي يسجل هذه الشهادة في ترجمته: «وكان على تمكن حظوته عند الملوك وعظم مكانته لديهم لم يكف جاهه قط في شيء يخصه

(1) د. محمد رزون - جوائب من التفكير السياسي - المجلة العربية للثقافة - العدد الرابع 27 سبتمبر 1995 ص 49.

ولا في استجزار منفعة لنفسه، إنما كان يقصره على مصالح بلده خاصة ومنافع سائر بلاد إسبانيا الإسلامية عامة، واستمرت حاله على ما ذكر من تولي القضاء بقرطبة وعرف التهمم بها والاعتناء بمآربه إلى أن نكب النكبة الشنعاء في عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة. وابن فرحون يؤكد نفس الشهادة ذاكراً أنه «لم ينشأ بالأندلس مثله كمالات وعلماء وفضلاء، وكان على شرفه، أشد الناس تواضعاً وأخفضهم جناحاً». ثم يقول: «وحمدت سيرته في القضاء بقرطبة، وكانت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترقية حال ولا جمع مال، إنما قصرها على أهل بلده خاصة». وهنا يجب أن نذكر أن المجتمع الذي كان ينتمي إليه، وهو مجتمع قرطبة، كان من أشد المجتمعات وعياً ومطالبة بشهادة المؤرخ ابن سعيد الذي يذكر أن عامتها شر من عامة العراق الذين سلط عليهم الحجاج ويؤكد «أن عامتها أكثر الناس فضولاً وأشدهم تشغيلاً ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشجيع على الولاة وقلة الرضا بهم». ومع ذلك، لم يسجل أي مؤرخ - حسب علمنا - أن احتكاكاً وقع بين ابن رشد ومواطنيه في قضايا معينة، أو أنه أساء التصرف، بل نجد الشهادات المجعولة كلها في صالحه، مما يدل على خبرة الرجل بقضايا مجتمعه، ووعيه بخطورة المرحلة التي يجتازها الأندلس، وأن لا سبيل إلى التهاون في مثل هذه القضايا، لأن ذلك يؤدي إلى الفتنة، والفتنة تؤدي حتماً إلى السقوط الشامل بأيدي المسيحيين المتربصين. وما يدل على خبرته ودرايته بأمور السياسة ما أورده في كتاب تلخيص الخطابة عند تعرضه للمواضيع التي يهتم بها الخطيب في كلامه للجسمهور، يرى أن الأهم منها هي التي تتعلق بقضايا الجماعة، قضايا الشعب، وهي التي يسميها «الأمور العظام»، فيقول عنها: «والأمور التي يشير بها الخطيب، منها ما يشير به على أهل مدينة بأسرهم، ومنها ما يشير به

على واحد من أهل تلك المدينة أو الجماعة، فأما الأشياء التي تكون في الأمور العظام من أمور المدن، فهي قريبة من أن تكون خمسة: أحدهما الإشارة بالعدة المدخرة من الأموال للمدينة، والثاني الإشارة بالحرب والسلم، والثالث الإشارة بحفظ الشعر مما يرد عليه من خارج، والرابع الإشارة بما يدخل في البلد ويخرج عنه، والخامس الإشارة بالتزام السنن. وهما أمران مرتبطان: «الاتحاد ضروري للجهاد بشقيه الأصغر والأكبر، ومن هنا كان إلحاق ابن رشد في كتبه النقدية: فصل المقال، ومناهج الأدلة، وتهافت التهافت، على الاتحاد، فهو ما فتيء يؤكد على فكرة واحدة وهي أن تمزقا حدث في أمة المسلمين، وأنه ينبغي وضع حد لهذا التمزق. وعندما يتعلق الأمر بالجهاد فإن ابن رشد يتحول من موقف الفيلسوف الهادئ الرصين إلى موقف الوطني الغيور الذي يلقي الحماس في نفوس أبناء بلده، ويقول عنه ابن عبد الملك في هذا الصدد: «وكان حسن الخلق جميل المداراة، فصيح العبارة، وجادا للكلام في المجالس السلطانية والمحافل الجمهورية. قال أبو القاسم بن الطليسان: سمعت كلامه بالمسجد الجامع من قرطبة وهو يحض الناس على الجهاد والغزو في سبيل الله».

ظلت القواعد بإسبانيا الإسلامية تتساقط باستمرار إلى أن انحسرت أخيرا في جنوب إسبانيا الإسلامية بغرناطة وضواحيها، حيث تكونت مملكة بني الأحمر التي عمرت أزيد من قرنين ونصف عرفت فيها أحداثا جساما سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فالانقسامات كانت تنخر جسم الدولة النصرية باستمرار، والضغط المسيحي كان على أشده، إما بالهجوم مباشرة، أو بتقديم المساعدة لهذا الثائر أو ذاك مقابل وعود معينة، وكل هذا كان يجري على مرأى وسماع من مفكري وعلماء إسبانيا الإسلامية، وبالتالي فقد كان عليهم أن يتأملوا ويحاولوا تشخيص الداء للبحث عن الدواء، خاصة

وأن العديد من هؤلاء شاركوا في الأحداث السياسية، وعابنوا بأنفسهم الظرف التاريخي الذي كانت تعيشه المنطقة، وسنختار نماذج من هؤلاء بعد التقاط صور لبعض الأحداث السياسية التي كانت تعيشها المنطقة.

ابن عاصم في مواجهة الأزمة:

دخلت مملكة غرناطة عهد الانحلال السياسي بعد وفاة الغني بالله محمد الخامس بن الأحمر عام 793 هـ / 1391 م، إذ خلفه على عرش غرناطة ابنه يوسف الثاني. إلا أن هذا الأخير لم يعيش طويلاً فتوفي في السنة التالية 794 هـ / 1392 م، وولي العرش بعده ابنه محمد السابع الذي كان أكثر اعتماده في تسيير زمام الأمور في مملكة غرناطة على قائده محمد الخصاصي. وفي عهد محمد السابع 799 هـ وقعت معركة قرب جبل طارق بين السفن القشتالية من جهة المسلمين (الأندلسيين والتونسيين والتماسيين) من جهة أخرى انتهت بهزيمة المسلمين وتدمير سفنهم. وفي عهد يوسف الثالث وقعت على أهل غرناطة هزيمة كبيرة في انتفيرة Antequera 813 هـ / 1410 م، وقد سقط في هذه المعركة أبو يحيى بن عاصم المعروف بالشهيد.

توصلت الفتن والاضطرابات السياسية في عهد الغالب بالله محمد ابن نصر الأمير، إذ خلع عن عرشه أربع مرات، وكان ملك قشتالة جوان الثاني Juan II يعمل على تأجيج هذه الفتن، ويزيد في اضطرامها بمختلف الأساليب، وذلك كي يتسنى له بسط سيطرته على مملكة غرناطة، وقد بسط أبو يحيى بن عاصم، مؤلف جنة الرضا، ذلك في رسالته التي خاطب بها أهل غرناطة على إثر انتهاء فتنة أبي الحجاج يوسف بن أحمد بن نصر أبي أخت الأيسر 851 هـ / 1448 م. وهذه الرسالة ذات قيمة كبيرة إذ تصور حال غرناطة وطبيعة الصراع بين أهلها وبين القشتاليين. والجدير بالذكر أن ابن

عاصم لم يكن بعيدا عن هذه الأحداث فقد كان من خاصة السلطان محمد ابن عاصم، ولذلك قضى ابن عاصم حياته في خوف وقلق، ولحقته محن أشار إلى كثير منها في كتابه جنة الرضا. وهكذا فقد تولى مفكرنا اثني عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والإمامة والخطابة في فترات عصيبة بالنسبة للأندلس، وشاهد أمام عينيهِ مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق بيد المسلمين إلا غرناطة التي بدأ العدو يستعد للوثوب عليها، وقد نلاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتعاونهم لاشتغالهم بفتنهم الداخلية وأفضت به تأملاته إلى تأليف كتاب في شكل «صور» محاولا البحث عن أسباب المأساة وفي نفس الوقت التحذير من الخطر الداهم، وقد لاحظ المقري ذلك، وهو بصدد نقل نص للمؤلف المذكور، قائلا: «عندما رأى (ابن عاصم) اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصارى - دمرهم الله - لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة، وما بقرب منها مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حيثئذ، ثم أفضى الملك إلى بعضهم، بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألّف كتابا سماه: «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى»، وهو كتاب عجيب جدا، غريب.

سنحاول أن نلقي نظرة على كتابه متوجين من ذلك الوقوف على الهدف، ومنهجه في تحليل المأساة. يوضح ابن عاصم أول الأمر الهدف من تأليفه كتابه قائلا: «إنما قررت من هذا التمثيل ما قررت، وحررت فيه من العبارة ما حررت ليكون لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري ووثق ما حققت له من اختيار تذكره، ومن غفلة هذه النفوس الأماره بالسوء تبصر ولهذا الغرض فإنه يورد العديد من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وكلام الحكماء وقصص الأولياء، وأحداث تاريخية متنوعة تؤيد ما ذهب إليه. ووضع الكتاب في ست صور: الصورة الأولى: «أن يكون الإشلاء في المقتنيات العزيزة على

النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال⁽¹⁾. الصورة الثانية: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال، وهو مأمول الجبر ولا مرجو الزوال». الصورة الثالثة: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال». الصورة الرابعة: «أن يكون الابتلاء في النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال». الصورة الخامسة: «أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير مرجو الارتفاع والزوال».

تحت هذه الصور من الابتلاءات والتمحيصات والاختبارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والأسف والوجد والتعب والقلق والهم والنكد وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يذهل العقل ويشغل الفكر ويغمر القلب ويتعب النفس ويضيق الصدر ويذهب النوم ويطرده الأُنس، ويتفاوت أثره بحسب مآثره في اللين والشدّة والثقل والخفة والكثرة والقلة وبحسب الملاقي له والوارد عليه وقوة الجأش وضعفه ومضاء العزيمة ووهنا وهي صور توحى لأول وهلة أنها بين اليأس والرجاء، إلا أنه بالتدقيق فيها يتضح أن صور الرجل تميل إلى اليأس أكثر من الرجاء فإنه قد تمرس بالسلطة وعرف رجالها كما أنه خبر قوة المسيحيين ومكايدهم ومدى قدرة واستعداد المسلمين على المواجهة وهذا ما يتضح بجللاء من بين ثنايا الصور: ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضممار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنی، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، وأنه مهتم بمراعاة

(1) د. محمد رزّون - جوانب من التفكير السياسي بالأندلس خلال نماذج معينة -

المجلة العربية للثقافة - سبتمبر 1994 - العدد 27 - ص 43.

أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسير حسوا في ارتفاعه، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه، فبنا لعقول تقبل مثل هذا المجال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال، وليت المغمور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات عقله وتجربيات حدسه، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فأنشده الله هل بات قط لمصالح النصارى وسلطانهم مهما. فالرجل إذن واع بخطورة الأساليب التي يتبعها المسيحيون لضرب المسلمين هناك خاصة وأنهم استمالوا عددا منهم بدافع المصلحة الآنية، وندأوه هنا صريح: وهو أن التعاون مع هؤلاء هو في حقيقة الأمر تهديد غير مباشر لسيطرة المسيحيين على ما تبقى من أرض المسلمين، هو على مستوى العامة يدعوهم إلى عدم التعاون مع المسيحيين، وعلى مستوى السلطة: يدعوها إلى الاتحاد لأن الفرقة في السلطة تؤدي حتما إلى دب الخلاف بين العامة مما يهيء عاملا إضافيا للقرات المسيحية المتربصة: «فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز إجماعا، ... تعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسي كان قد تمحين للهلاك بسبب هذا الخلاف وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقة بوقوع هذا الاختلاف.

ومن خلال ما أوردناه نلاحظ أن ابن عاصم في تحليله للمأساة يركز على ثلاث فقط: - أساليب العدو في الاستيلاء على أراضي المسلمين بالمكايد والحيل. - الخلاف في السلطة. - عدم التمسك بالعقيدة (بفعل الحملات التشكيكية القوية التي كان يمارسها المسيحيون).

وهذه العوامل متكاملة إلى حد كبير، فاستمالة المسلمين تقتضي التشكيك في عقيدتهم، والخلاف في السلطة يؤدي إلا إضعافها وعدم القدرة على مواجهة المحاولات التجريبية التي يقوم بها المسيحيون لهدم الكيان العربي

الإسلامي. لكن يبقى السؤال دائما مطروحا: هل وجدت نداءات ابن عاصم آذانا صاغية؟ إن التاريخ يبين عكس ذلك! فالمسألة كانت قد استشرت داخل المجتمع الإسلامي الأندلسي بغرناطة إلى حد كبير، والإسبان كانوا على الأبواب.

أبو عبد الله محمد بن الأزرق (ت 876 هـ / 1491 م): محاولة تشخيص الداء:

اشتغل ابن الأزرق بأربع وظائف، اثنتين رسميتين، واثنين تطوعيتين، أما الرسميتان فهما القضاء والسفارة، وأما التطوعيتان فهما التدريس والإفتاء وقد شغل هذه المناصب بالأندلس (خاصة مسقط رأسه مالقة وغرناطة). وقد كانت له مشاركة واسعة في الفقه والعقائد والأدب والتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاته على أن ما يهمننا بالنسبة لموضوعنا هو كتابه في السياسة: «بدائع السلك في طبائع الملك» كتبه ابن الأزرق 883 هـ / 1478 م ولم يلبث مدة حتى سقطت مالقة في موطنه 692 هـ / 1487 م، فهل استشعر النكسة قبل وقوعها؟

أوضح ابن الأزرق الهدف من تأليف كتابه قائلا: قصدت إلى تلخيص ما كتب الناس في الملك والإمارة والسياسة التي رعيها على الإسعاد يصلح المعاش والمعاد أصدق إمارة على نهج يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب، ويأتي في تقريره لتهديب ما فصل وتحريره بالعجب العجائب، لا تحف به من تشوف لهذا الغرض، ولم يعدل فيه من الجوهر إلى العرض، من أمير صدقت فيه رغبته وظهرت، وأمور وضحت له دلائل الإفادة به وبهرت. ففعلا فالكتاب في كثير من جوانبه تلخيص لما أورده ابن خلدون، فكأنه أراد بذلك أن ينبه إلى ما سبق أن نبه إليه الأول عندما استعرض أسباب فساد العمران، وهو إن اختلف مع سابقيه من حيث المنهج فإن الهدف مع

ذلك واحد، إذ هو مرتبط أساساً بالوضع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها الأندلس آنذاك، فحاول من خلال استعراض (قواعد الملك) أي الأسس التي يجب أن يركز عليها كل حكم أراد لنفسه الاستقرار والبقاء، فقد وضع إسبانيا الإسلامية أما الصورة بكل وضوح عندما استعرض هذه الأسس، أي مخالفتها تؤدي حتماً إلى هدم الكيان ككل وقيام كيان جديد دخیل وهو في هذه الحالة: الإسبان. ولهذا فكتاب ابن الأرق اعتباراً لهذه الأسس جميعاً تشخيص للداء ومحاولة للبحث عن الدواء. عاين ابن رضوان تمزق إسبانيا الإسلامية وسقوط الثغور، الثغر تلو الثغر، كما عاين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية بإسبانيا الإسلامية، عاين حكام غرناطة وهم يثقلون كاهل الرعايا بالضرائب غير الشرعية، عاين النزاعات بين أفراد البيت المالک، عاين تكالب القوات المسيحية على غرناطة، بل وتحالف بعض الثائرين مع الممالك المسيحية ضداً على المسلمين، عاين، وعاين. وبعد التأمل، تكونت لديه قناعة بضرورة الرحيل إلى المغرب المريني، خاصة وأن جهاد أبي الحسن بالأندلس ما زال ماثلاً أمام الأذهان، وذلك للبوح بما كان يكتمه في صدره وهو بعيد عن أرض الصراع، فألف كتابه «الشهب اللامعة في السياسة النافعة» والكتاب وإن ألف أصلاً للسلطان أبي سالم المريني (حكم من 760 هـ إلى 762 هـ) إلا أنه في الحقيقة يعتبر بمثابة تحذير قوي وشديد للسلطان يشبه فيه من مغبة أن يقع بالمغرب ما وقع بإسبانيا الإسلامية، فهو إنذار بوقوع الكارثة. فهو في كتابه يستشهد كثيراً بما أورده ابن حزم والطوطوشي، ملمحاً إلى ما كان يدعو إليه هؤلاء من ضرورة تماسك الجبهة الداخلية لمواجهة الأخطار الخارجية، فهو من خلال خمس وعشرين باباً يحاول أن يزسم قواعد سليمة للملك. ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت، صامدة ضد هجمات المسيحيين. ونستطيع أن نستخلص عوامل هذا

الصمود من خلال نص أورده مارمول Marmol وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلا: «كان الأمير أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر، وقد صار أقوى من تولوا هذه الإمارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمن. وقد تأتي له ذلك بسبب ما وقع بين الأمراء النصاري من النزاعات. فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم، وكانت لديه مدافع كثيرة وذخيرة بالإضافة إلى جيشه من الفرسان والراجلة المجهزين بالبنادق، وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة، وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا أعداء الداء للنصاري. هناك إذن، حسب هذا المؤرخ الإسباني القريب من الأحداث على الأقل ثلاثة عوامل ساعدت على هذا الصمود: - تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة، وتصميم رجالها على الدفاع عن حوزة بلادهم بتأييد من الفقهاء والعلماء. - تنازع الممالك المسيحية في الشمال، إذ حال ذلك دون اتخاذ تدابير حاسمة ضد المملكة الإسبانية. - مساعدة بني مرين والمجاهدين المغاربة عموما، إذ كانت هذه المساعدة تضيف الحيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة.

لكن بمجرد اختفاء هذه العوامل بدأت مؤشرات السقوط تظهر في الأفق، فالبيت المالک أصبح منقسما على نفسه ومملكة قشتالة أوراجون توحدا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقة والمغرب لم يعد قادرا على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب أزماته السياسية والاقتصادية التي كان يمر بها آنذاك، وبدأت بذلك مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المرحلة السابقة. هكذا انتهت فصول هذا النزاع المرير الذي خاضه العرب بإسبانيا الإسلامية وهو صراع كان يدرك وزنه جيدا الإسبان، إذ اعتبروه نقطة

تحول هامة في تاريخهم، وهو في نفس الوقت يدل على أهمية المقاومة المغربية ولنتظر إلى الذي تركه المؤرخ الإسباني السالف الذكر وهو يتحدث عن دخول الإسبان قصر الحمراء: «دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليبا كبيرا من فضة، ولواء الملكية المسيحية، وما أن أبصرت الملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الأرض واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماسي في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية، عند ذلك بدأ فيرناندو وبعض عليه القسوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها، تقدم نحوه أبو عبد الله (آخر ملك غرناطة) ممتطيا جواده، ولما دنا من فرناندو، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني، لكن هذا الأخير أومأ إليه ألا يفعل شفقة عليه، فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فيرديناد اليميني، وقدم إليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها إلى الكونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة. ولم يكن مفكرو إسبانيا الإسلامية بعيدين عن هذه الأحداث، فلنتظر ما كتبه مؤرخ أندلسي مجهول عاصر سقوط غرناطة وشاهد بعينه تمزق إسبانيا الإسلامية، وهجرتهم إلى المغرب العربي، فاضحا كل ممارسات حكام غرناطة والتي أدت في النهاية إلى هذا السقوط المروع. فيذكر وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة 883 هـ: «ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاص، ذلك أنه اشتغل باللذات، والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والحفلات وطبع الجند وأسقط كثيرا من لمحة الفرسان، وثقل المغارم وكثرت الضرائب في البلدان، ومكن الأسواق، ونهب الأموال، وشح بالعتاء إلى

غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك، وكان الأمير أبي الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك، فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مشتغل باللذات، منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الأموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها، ويجعل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثير من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها». فالنصنص خطير، ويبين إلى أي حد وصلت الأمور في الأندلس، وكان النتيجة كانت معروفة مسبقاً: «ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرمهم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينه كرها وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد سول الله جهرًا، إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حريق وكم فيها من الضعفاء والمعدومين ولم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً مدراراً، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا نهيههم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب! فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها وأمرها وطامة ما أكبرها». وقد كان وقع السقوط في النفوس كبيراً، ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس، رثاء أحمد الدقون لها: وبعد هذه نظرة عامة عن التفكير السياسي بإسبانيا الإسلامية من خلال نماذج معينة، رأينا فيها كيف كان هذا التفكير يقطا مستثيراً، يرشد وينبه، بل ويتنبأ بما

سيقع، لكن عوامل داخلية وخارجية حالت دون تبني هذا الفكر من طرف القادة والحكام، لأن المصلحة الآنية والشخصية كانت تطفئ في كثير من الأحيان على المصلحة العامة، ولأن تقديرات حكام الأندلس سواء فيما يتعلق بالقضايا الداخلية أو الخارجية كانت في غالب الأحيان خاطئة⁽¹⁾. فما أحرانا اليوم ونحن نخلد ذكرى هذا السقوط أن ننتبه ونركز لثلا نفع في أخطاء الماضي، والتاريخ لا يرحم.

يرى الونشريسي في بعض الأحيان التسرع وإعطاء نبذة عن الحالة التي يتحدث عنها. من ذلك مثلا ما فعله حين مناقشة إمكانية قبول خطاب المدجنين وقضاتهم الذين كانوا تحت إيلة النصارى، فيشير إلى المتمرد عمر بن حفصون وقضاته الذين كان يعينهم في المناطق الخاضعة له، وأنه لا تقبل شهادتهم ولا خطابهم، ثم يذكر نبذة عن ابن حفصون وحركته مستندا إلى الرازي، لكنه لا يشير إن كان هذا هو أحمد بن محمد الرازي أم ابنه عيسى. كما ينقل أيضا عن ابن القوطية. ولا تختلف النصوص التي يوردها الونشريسي كثيرا عن نص ابن القوطية المنشور لكنه يضيف أحيانا بعض التعبيرات أو الإضافات كقوله إن عمر كان «شجاعا مقداما». وعلى الرغم من اختصار الونشريسي إلا أن نصه ينفع في المقارنة مع نص ابن القوطية. وبالنسبة لرواية الرازي، فقد نص ابن حيان في كثير من مقتبساته عن ابن حفصون على أنها عن عيسى بن أحمد الرازي أما ابن عذارى، فقد نقل إما مباشرة عن ابن حيان أو أنه لم يشر في أماكن أخرى إلى مصادره وتتميز الرواية التي ينسبها الونشريسي إلى الرازي أنها تتضمن أحيانا بعض الإضافات، مثل ذكر القرية التي تنتسب إليها أسرة ابن حفصون، وهي

(1) د. محمد رزون - نفس المرجع ص 49.

«وابة»، بينما تكتفي رواية ابن حيان بالإشارة إلى الكورة. وهي تاكرونا من عمل رندة Ronda وربما تكون (وابة) هذه هي التي أشار إليها رينهارت دوزي R. Dozy على أنها حصن أوط Aute. كذلك أشارت رواية الرازي التي ذكرها الونشريسي إلى نص مهم يتضمن لقاء ابن حفصون بالقاضي عامر بن معاوية اللخمي، في إحدى جولاته، فاحترمه وقبل يده. وقد دعاه القاضي أن يتقي الله في الناس إذا ملك رقابهم، ومن هنا ازداد اقتناع عمر بتحقيق أمله في الفوز والوصول إلى الزعامة. وتزيد بعض إشارات الونشريسي من معلوماتنا عن الأمويين، من ذلك مثلاً التعرف على أسماء بعض أفراد أسرة الأمير عبد الرحمن بن الحكم (206 - 238 هـ / 822 - 852 م) من خلال الاحباس التي أوقفها عليهم، منها ابنته من أم عبد الله، ومنها جاريته أم المطرف شفاء وولدها، ومنها جاريته أم المغيرة اهتزاز، ومنها جاريته أم المنذر مدمرة وولدها، ومنها جاريته أم عبد الله طروب وولدها.

كذلك يمكن الاستفادة من بعض الملاحظات التي وردت في المعيار في التعرف على أحوال عصر الطوائف وبعض الشخصيات المتميزة فيه، مثل سعيد بن أحمد بن رفيل. الذي تمرد بحصن شقورة لأعوام كثيرة، واغتصب أموالاً لا تحصى، وفرض الضرائب على الرعايا بجهة جيان Jean وغيرها حين لا نجد مثل هذه التفاصيل في المصادر التاريخية المعنية، فكل ما أشار إليه ابن عذارى مثلاً عن هذا الرجل في حوادث 435 هـ / 1043 م، إنه (سعيد بن رفيل صاحب شقورة) دون ذكر تفاصيل عنه وعن حركته وما قام به إزاء السكان في المنطقة. ومن الشخصيات الأخرى التي قدم المعيار معلومات عنها، شخصية الكاتب أحمد بن رفاعه، كاتب بشير الصقلي العامري صاحب الشعور أيام آل عامر وأحد المستورين في الفتنة، الذين استقروا بقرطبة في عهد آل جهور، وتوفى بها 436 هـ / 1044 م. وينقل الونشريسي

معلوماته التاريخية هذه عن متين ابن حيان الذي لم تصلنا الكثير من نصوصه وذلك في أثناء الحديث عن وصية هذا الكتاب وكيفية تنفيذها واختلاف رأي الفقهاء فيها. كذلك يشير إلى شخصية أخرى في دويلة بني جهور، هي شخصية إبراهيم بن السقاء قيم هذه الدويلة، ويشير إلى (أنه من أهل الاستطالة في الاموال والاستبداد بها وأنه كان مقلا وتوفى مثرى) ويفيد هذا النص في المقارنة مع ما جاء في المصادر التاريخية في وصف هذا الرجل المتوفى 455 هـ/ 1036 م، ومدح لسياسته وضبطه لأمر بني جهور، وأنه كان حسن السيرة والسياسة. ويقدم المعيار معلومات أخرى عن هذا العصر، لا سيما فيما يخص بعض أعمال المنصور عبد العزيز بن أبي عامر، وواضح العامري في شرق الأندلس، مثل بنائها للرباع والحوانيت، وتخصيص مواردها لنواب المسلمين وأرزاق الأجناد، وعدم ظهور ما يشير إلى قيامها بأي غضب أو استيلاء على أموال المسلمين ولكنه من جهة أخرى يورد ما يتصل على قيام ابن عباد باغتصاب أملاك وعقارات في منطقة إشبيلية Sevilla، لا سيما ما أخذه من ابن الزهري، حيث غصبه مجزأ أو قرية، استحوذ عليها دون وجه حق. ويقدم لنا الونشريسي في المعيار حلاً لمشكلة سياسة تاريخية بزم خروج مدينة برشلونة Barcelona من أيدي المسلمين، وذلك حينما يورد إجابات فقهية عن حكم المسلمين المتخلفين في أرض يسيطر عليها الأعداء: «وسألته غنم تخلف من أهل برشلونة من المسلمين من الارتحال عنها بعد السنة التي أجلت لهم يوم فتحت في ارتحالهم فأغار على المسلمين تعودا مما يخاف من القتل إن ظفر به. فلفقد استولى المسلمون على برشلونة لأخر مرة 375 هـ/ 985 م حينما انتصر الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر على كوند المدينة بوريل الثاني Borrell II، ودخل المدينة وترك بها حامية إسلامية، ولكن هذه الحامية عبر إلى الضفة الأخرى لنهر إبرة Ebro، مما هيا للكوند بوريل الرجوع إلى المدينة، وليس لدينا تفاصيل في المصادر العربية عن هذه المسألة ويبدو من

النص الذي أشار إليه الونشريسي أن الكوند بوريل أنذر المسلمين في المدينة بمغادرتها خلال عام واحد اعتباراً من عام 377 هـ/ 987 م، وخرجوا عام 388/ 788. وتدل إشارة الونشريسي أيضاً على وجود بعض المسلمين في المدينة اشتركوا مع النصارى في حماية إخوانهم خلال العام الذي أجلهم فيه الكوند بوريل خوفاً على حياتهم. وأخيراً يقدم لنا الونشريسي رأي فقهاء غرناطة عن قيام أبي عبد الله الصغير على والده أبي الحسن، وتأييد بعض قادة الأندلس وفرسانها له، وما أعقب ذلك من فتنة مبررة واستعانة بالنصارى أدت في النهاية إلى سقوط غرناطة وضياع إسبانيا الإسلامية. وقد صدرت الفتيا عن نحو خمسة عشر من سادات وعلماء المدينة وفقائها، وأشارت إلى أن عملية أبي عبد الله الصغير هي محض عصيان وخروج على طاعة الله ورسوله، وأنها أدت إلى إسقاد نار الفتنة والعداوة وتفريق المجتمع مع توهين أمر المسلمين وأطماع العدو الكافر بهم، وأن استنجادهم بالأعداء لا يجوز، وكذلك تجديد بيعتهم للأمير المأسور ما هو إلا إصرار على المعاصي والمحرمات. وقد قيدت هذه الشهادة في أواسط شهر رمضان عام 888 هـ/ 1483 م. ومن الجدير بالذكر أن المصادر التاريخية التي تناولت الصراع بين أبي عبد الله الصغير وأبيه أبي الحسن علي لا يشير إلى هذه الفتوى إلا بصورة عارضة، حيث يذكرها المقرئ باختصار قائلًا: «وتكلم أهل العلم فمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعتهم، ومن أطاعه عصى الله ورسوله» أما المؤلف المجهول لكتاب نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر الذي كان معاصراً لهذه الأحداث، فلا يشير إلى هذه الفتوى، على الرغم من امتعاضه الواضح من عملية الأمير أبي عبد الله⁽¹⁾.

(1) د. جمعة شيحة - الشعر الأندلسي كمصدر للتاريخ - المجلة العربية العدد 27 -

سبتمبر 1959 ص 151.

نظام الحكم والإدارة على عهد عبد الرحمن الداخل

رغم المجهودات المضنية التي بذلها عبد الرحمن في إخضاع البلاد وإقرار الأمن والنظام وقمع الفتن والثورات مما استغرق معظم وقته ونشاطه فإن هذا لم يمنعه من وضع تراتيب الدولة وإقامة نظمها وطبعتها جميعا بطابعه الخاص .

تعبّر الرواية عن ذلك بما تنسبه إلى الخليفة العباسي المنصور من أنه أطلق على عبد الرحمن لقب «صقر قریش» وفسر ذلك بأن الأمير الأموي عبر القفر وركب البحر حتى دخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه ، فمصرّ الأمصار وجنّد الأجناد ودوّن الدواوين وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحسن تديره وشدة عزمه . ورغم أن الكتاب لا يهتمون إلا بالتاريخ السياسي ويهملون النظم الإدارية فإنه من المعروف أن الولاة الذين سبقوا عبد الرحمن الداخل في حكم إسبانيا الإسلامية باسم خلفاء دمشق كانوا قد نقلوا إلى البلاد النظم الإدارية المعمول بها في الشام وركزوا الحكم في قرطبة . وكان على عبد الرحمن أن يعمل على تهذيب هذا التنظيم الحكومي وجعله مناسبًا لمقتضى الأحوال ، وترتب على ذلك أن أصبحت الأندلس إمارة مستقلة تتحكم في مصيرها ومستقبلها بعد أن كانت إقليمًا بسيطًا من أقاليم الإمبراطورية العريضة . فقبل وصول عبد الرحمن الأول إلى إسبانيا الإسلامية كانت البلاد قد قسمت إلى أقاليم إدارية «قرى وكور» لكل منها واليها الذي يقيم في «قاعدة» الإقليم أي عاصمة (كما رأينا - الأجناد) . وسيظل هذا التقسيم قائمًا بالأندلس إلى انهيار الخلافة الأموية الإسبانية . وكذلك كان الحال بالنسبة للتنظيم العسكري غير أنه يلاحظ أن عبد الرحمن عمل (حوالي منتصف عهده) على تكوين جيش نظامي كفاء (قيل أنه بلغ حوالي 100 ألف رجل) وأنه استدعى لذلك البربر من المغرب كما أتى بالمصاليك من مختلف الأجناس من جنوب أوروبا وأنه عمل على إنشاء حرس ملكي خاص ربما بلغت قوته 40 ألف رجل حسب بعض الروايات من موال وبربر وسودان ومماليك (الصقالبه فيما بعد) .

فيما يختص بالدواوين والإدارة فيكتفي الكتاب أيضا بذكر بعض أسماء مستشاري بلاط الداخل وهؤلاء لم يكونوا يحملون لقب «الوزير» كما سيحدث فيما بعد كما أن هناك ذكر لأسماء بعض قضاته وحجابه. ولم تكن وظيفة الحاجب في ذلك الوقت تشبه وظيفة رئيس الوزراء كما سيحدث فيما بعد بل كانت أشبه ما يكون بوظيفة أمين القصر - أي دار الأمير - كما كان الحال بالمشرق أي الذي يمنع الناس من الدخول على الأمير دون إذن وينظم مقابلاته. أما عن النظم المالية فالمعلومات عنها ليست بأكثر وفرة ولكن القول بأن أمراء إسبانيا الأول من الأمويين اتبعوا دون شك النظم التقليدية التي كانت معروفة بالشام وبقية أطراف الإمبراطورية وأن ابن حفيده وسميه عبد الرحمن الداخل الثاني بن الحكم هو الذي سيدخل على النظم السياسية بعض الإصلاحات التي أدخلها العباسيون بالمشرق. كان يحق لعبد الرحمن لأسباب عاطفية أو واقعية ألا يتسامح في وجود أي نفوذ في بلاده ولأولئك الذين اغتصبوا عرش أجداده بالمشرق. وعلى ذلك اعتبروا لواء العباسيين الأسود في إسبانيا كرمز للفتنة والانفصال، بينما ارتفعت الراية الأموية البيضاء بزهو وتقوى (كان لواء عبد الرحمن في أول الأمر عبارة عن عمامة علقت في رمح. وذلك كما حدث في المشرق عندما اتخذ أعداء العباسيين اللون الأبيض شعارا لهم، ولهذا سموا بالمبيضة، على عكس العباسيين الذين عرفوا بالمسودة. ومن البياض اشتق الفعل ببيض بمعنى الخروج على الدولة أو شق عصا الطاعة. كما أن الفتق التي أثرت بتحريض خلفاء بغداد قمعت دون شفقة، بل وأكثروا من هذا فإن بعض الكتاب نسبوا إلى عبد الرحمن الداخل مشروعاً خيالياً يتلخص في المسير إلى الشام وطرد العباسيين: فقليل أن أمير قرطبة أعد في 163 هـ (780) الإعدادات المناسبة للحملة، لولا أن منعه الثورة التي قامت بسرقسطة.

تحتل مسألة التنظيم الإداري مكاناً بارزاً من سياسة هؤلاء الأمراء المستقلين الذين عرفهم تاريخ الإسلام، ولم يكن همهم إخماد المعارضة فحسب أو إنشاء الجيش الصالح للقتال فحسب، إنما كانوا يهتمون في المحل الأول بإنشاء الإدارة الحارمة أداة لإصلاحاتهم الداخلية وتنفيذ سياستهم وتشديد قبضتهم على البلاد، وإيجاد طبقة من الموظفين تخلص لهم كل الإخلاص وتتأفي في خدمتهم واستحداث نظم تحقق أهدافهم، وضع الطولونيون والإخشيدون موضوع التنظيم الإداري نصب أعينهم بل كان عماد نفوذهم وسلطانهم وكذلك فعل الأغالبة والأدارسة. لننظر ماذا فعل عبد الرحمن. أنشأ عبد الرحمن حكومة على النسق الأموي وكان اتجاهه هذا طبيعياً، فقد استقى من تقاليد عرفها الأمويون وطبقوها وحقت لهم السؤدد نحو من تسعين سنة، هذه التقاليد الأموية يطلق عليها «التقاليد الشامية». وكانت هذه التقاليد تعتمد على أسس واضحة على تكوين جماعة من الرجال المخلصين للدولة ينهضون بعثها في العاصمة والأقاليم، فهم رجال من العرب أو من موالي البيت الأموي يحققون أهداف البيت الأموي. وقد شهد العصر الأموي في الشرق جيلاً كاملاً من الإداريين الأكفاء والقواد المهرة نهضوا بالعبء كله أمثال زياد والحجاج ومسلمة بن مخلد وقرّة بن شريك وموسى بن نصير، وكان جيل الإداريين الذين خلقهم تنظيم عبد الرحمن لا يقلون كفاية أو إخلاصاً عن ذلك الجيل القديم. كانت الدولة الأموية دولة رجال، الرجال أنفسهم هم السجلات والقواعد والأهداف، بينما كانت الدولة العباسية دولة بيروقراطية، دولة سجلات ودفاتر ودواوين وكتاب. ويعلق المؤرخون على هذا الاتجاه بقولهم: إن الأمويين في الأندلس أعطوا البلاد رجالاً ولم يعطوها نظاماً، وهذا على العكس مما فعله العباسيون أوجدوا النظام وافتقروا إلى الرجال، وكلا الاتجاهين لا يخلو من ضعف.

على كل حال نهض عبد الرحمن بأعباء دولته بنفسه واعتمادا على أهل بيته الذين استدعاهم وعهد إليهم بمهام الأمور وكون طوائفا من الموالي المخلصين وأكسب الدولة كلها طابعا عربيا قرشيا أمويا، وهذا ما يعرف في المصطلح بالتقليد الشامي في إسبانيا الإسلامية. وقد قسم إسبانيا الإسلامية إلى كور وفقا للنظام الشرقي المعروف مع الاحتفاظ بالخطوط الكبرى للتقسيم الإداري الذي عرفته منذ أيام الرومان، ولم يغير من السياسة الاقتصادية القديمة كثيرا وإن كان قد اتجه إلى تخفيف أعباء الخراج لیتلاءم مع الأوضاع الاقتصادية. وقد أدى هذا الإصلاح إلى تحسين أحوال الفلاحين والارتفاع بمستوى الإنتاج الزراعي وكان رائده أن ضرائب خفيفة يدفعها كل الناس فائدة من ضرائب فادحة لا يدفعها إلا أقل الناس، وكان في هذه السبيل يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه ابن طولون في مصر حينما جعل الخراج أساس الموارد المالية للبلاد. وقد سلك عبد الرحمن بنظام الوزارة مسلکا جديدا، وإن كان يتفق مع النظام الذي ألفه المشرق في بعض الاتجاهات. كان العباسيون مثلاً يختارون رجلاً واحداً ويقوضون إليه أمور الإدارة جميعاً إحياءاً للتقاليد الفارسية القديمة. أما عبد الرحمن كان يختار طائفة من الوزراء من أنصاره ومواليه يختص كل منهم بأمر من أمور الدولة، وكان رئيس هؤلاء جميعاً يسمى الخاجب، وأصبح نظام الخجابه هذا تقليداً جرى عليه الأمويون من بعد عبد الرحمن، وكان منصب الخاجب تزداد مهامه ويتسع سلطانه حتى يأتي اليوم الذي نجد فيه حاجباً أندلسياً يعملو على الخلافة نفسها ويتحكم في مصيرها. وكان عبد الرحمن مقلداً لجده عبد الملك بن مروان ولعنه الوليد فكانت له قدرة فائقة على التعمير وإنشاء المدن والقصور والحصون فهو الذي تطور بمدينة قرطبة من مجرد مدينة ريفية زمن القوط أو معسكر حربي زمن الولاة حتى أصبحت حاضرة كبرى بدأت تعمر، وبدأ الناس يتوافدون عليها

من كافة النواحي، وبدأت تأخذ ذلك الطابع المميز الذي أعطاهها شخصية فريدة في العالمين الشرقي والغربي طوال العصور الوسطى. وهي تختلف عن عواصم الإسلام الأخرى، عن الفسطاط والكوفة والقيروان، فقد كانت هذه المدن معسكرات للجنود العرب أوجدتها ضرورة عسكرية. أما بغداد فقد أوجدتها ضرورة سياسية، على حين قرطبة كانت مدينة قبل أن تصبح عاصمة ولم يكن اختيارها موفقاً فهي لا تتوسط شبه الجزيرة ولا تقع على مدخل الهضبة الوسطى مما يمكنها من السيطرة الفعلية على شبه الجزيرة. وأهم منشآت عبد الرحمن: الجامع الأموي في قرطبة هذا الجامع الذي أنشئ لإنشاء جديداً على نحو يشبه من بعض النواحي مساجد الإسلام الأولى، وقد أصبح هذا المسجد على تعاقب الأيام عنوان مجد الأمويين ورمز عزهم. وفي مواجهة الجامع على نفس الضفة من الوادي الكبير أنشأ القصر وهو أيضاً تحفة فنية تزداد من حيث الحجم والجمال مع الزمن، وبين القصر والجامع نجد الطريق الكبير الذي يمتد من ضفة الوادي الكبير إلى شمال البلدة ويسمى «بالمحجة الكبرى» ويتصل ذلك الطريق بالضفة الأخرى للنهر عن طريق قنطرة الوادي التي تردد صداها كثيراً في الأدب الأندلسي⁽¹⁾. ولكن رغم الحقد الطبيعي الذي كان يكتبه الأمير الأموي لمن سفكوا دم أسرته فإنه لم يجرؤ في أوائل حكمه على عدم الدعوة لهم في خطبة الجمعة بالمسجد الجامع. وعلى ذلك كان يخطب للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور طوال السنة التي تلت استيلاءه على قرطبة، ولكن عندما خضع يوسف الفهري، لفت ابن عم الأمير وهو عبد الملك بن عمرو بن مروان الذي كان قد هاجر حديثاً إلى الأندلس، نظر عبد الرحمن إلى الأثر السيئ الذي يحدثه هذا العمل وطلب إليه أن يخطب لنفسه. ورغم هذا فإن عبد الرحمن مثله مثل

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 93.

خلفائه الأوائل، لم يفكر في اتخاذ اللقب الخلفائي: لقب أمير المؤمنين. ولن يحدث ذلك إلا في 316 هـ. (929 م) كما سئرى على عهد عبد الرحمن الناصر الذي سيمترك لقب الأمير ويتخذ لقب أمير المؤمنين، وذلك لأسباب سياسية في مجملها، في الوقت الذي طالب فيه خليفستان آخران هما الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي بأحقية هذا اللقب. إلا أنه لا نعرف بالتأكيد عما إذا كانت الخطبة قد عادت باسم الخليفة العباسي، في فترة الانتقال، تحت تأثير المتزمتين من الفقهاء الذين كانوا يحرضون كما كان الحال في الجهات الأخرى، وعلى احترام فكرة الخلافة، الواحدة التي لا يجوز أن تتجزأ أو تتعدد. مهما يكن من أمر فإن عبد الرحمن لم يجرؤ؛ على أن يتخذ من ألقاب السلطان أكثر من لقب «الملك» أو «الأمير» واكتفى بأن يضيف إليها «ابن الخلائف». ويظهر احترام «فكرة الخلافة» كذلك في النقود التي سكّت بالاندلس على عهد الأمويين الأوائل. ورغم لقب عبد الرحمن المتواضع فإنه لن يلبث أن يفرض نفسه على الجميع ويستتزع إعجابهم بنشاطه الذي لا يحد، وجوه في العمل على إحياء أسرة أجداده الشاميين في الطرف الأقصى من مغرب العالم الإسلامي. ويذكر الكتاب العرب في هذا المقام بعض الأفاضيل منها أن الخليفة المنصور العباسي نعت «بصقر قریش» التي استعملها كثير من مترجميه فيما بعد. ويسميه المؤرخون عبد الرحمن الداخل (المناجر) لتمييزه عن ابن حفيده عبد الرحمن الثاني المعروف بالأوسط، وعن الخليفة الكبير عبد الرحمن الثالث الذي سيتخذ اللقب الخلفائي «الناصر لدين الله» الذي يعرفه به المؤرخون. على عهد الداخل أخذت قرطبة شكل العاصمة الإسلامية، وفي آخر عهده ازداد سكانها زيادة سريعة. ولقد سبقت الإشارة إلى أنه لكي يهيء للعهد الكبير من المؤمنين الذين يزدادون على مرور الأيام المكان المناسب في المسجد الجامع اضطر عبد الرحمن إلى توسيع بيت الصلاة،

وذلك بشرائه من المستعربة من أهل قرطبة نصف كنيستهم الذي كانوا قد احتفظوا به للقيام بطقوسهم الدينية. وكان في الفترة ما بين ذلك قد أقام في المسجد سقائف من الخشب وبعد أن وافق النصارى على ترك كنيستهم، دون صعوبة، هدم عبد الرحمن كل البناء وبنى الجامع 169 هـ / 785 م: وانتهت الأعمال في نهاية عام. ويقول الكتاب أن نفقات البناء بلغت 80 أو مائة ألف دينار. هذا المسجد كان بسيطاً نسبياً، كما لم يكن كبير المساحة، وعلى ذلك فإن خلفاء عبد الرحمن سيأخذون على عاتقهم توسعته والإصلاح من خطته ومن شكله. إلى جانب ذلك بنى عبد الرحمن، حسب رواية بعض الكتاب، مساجد أخرى صغيرة في مختلف الأحياء. كما ينسبون إليه أيضاً إنشاء أسوار قرطبة 149 هـ / 766 م، أو على الأقل إصلاحها، إذ أن الوالي السمع بن مالك الخولاني كان قد أقام حولها سورا من الطوب قبل ذلك بنصف قرن.

احتفظ عبد الرحمن في أول الأمر بالإدارات المختلفة للحكومة في قصر الولاية القديم أي في دار الإمارة كما يسمى، والذي كان يشغله ولاية القوط من قبل ثم نسق من جديد. ثم أنه في 168 هـ / 784 - 785 م، شيد في نفس المكان وذلك قرب الوادي الكبير جنوباً والمسجد الجامع شرقاً، قصراً جديداً حول إليه ديوانه وأقام هو نفسه فيه. وكان حتى ذلك الوقت يفضل الإقامة، عندما يكون وجوده في الأقاليم أو على حدود الدولة غير ضروري بالرصافة، وهي محل إقامة واسع تحيطه الحدائق والبساتين في منطقة خلوية، وعلى شاطئ جدول على بعد 3 (ثلاثة) كيلو مترات من شمال غرب قرطبة.

اسم هذا القصر الريفي الذي اختاره عبد الرحمن نفسه يعبر عن الحنين الذي كان يشعر به الأمير كثيراً إلى وطنه البعيد. إذ كان جده الخليفة هشام قد أطلق اسم الرصافة على قصره الصيفي الواقع في شمال شرق تدمر بين هذه

المدينة والفرات والذي كان قد هبأه لسكانه وسط الحداثق والبساتين 110 هـ/ 728 م. وكذلك فعل خلفاء هشام الذين لم يكونوا ليستطيعوا المقام طويلا خارج بادية الشام التي تلائم مزاجهم البدوي، فكانوا يذهبون للإقامة لفترات طويلة بعض الشيء في إحدى قصور (قلاع) رصافة هشام. ربما ذكرت رصافة قرطبة عبد الرحمن، وكان قد رأى بها، ذات يوم أثناء نجهواله، نخلة، برصافة الشام فبنى بها قصره المفضل رغم بعده النسبي عن قلب العاصمة. وبعد عبد الرحمن الداخل اعتنى كثير من الأمراء المروانيين بتوسيع وتجميل هذا القصر الذي ظل قائمًا حتى آخر أيام الأسرة الأموية، والذي سيعطي اسمه عندما تسع قرطبة في القرن العاشر إلى ضاحية (ربض) من أكثر ضواحي المدينة سكانًا وتوجد الآن في موضع الرصافة عند سفح الجبل قرية ريفية ما زالت تحتفظ بهذا الاسم Arrizafa ومنذ ذلك الوقت سيحمل الكثير من منيات الأمراء الأمويين في ضواحي قرطبة وربما بعض قباب القصر أسماء مواضع من بادية الشام: مثل قصر الحائر، داخل القصر الملكي، الذي خل بقرطبة اسم قصر آخر ينسب بناؤه إلى الخليفة هشام. وهناك ما يحمل على الظن أن التقاليد الشامية ربما استمرت لمدة طويلة بإسبانيا ولو لم يدخلها أحد الأمويين ويترع على عرشها. فعندما استقر جند بلج في جنوب الجزيرة - دون الكلام عن غيرهم ممن ساقتهم الظروف والأحداث إلى إسبانيا الإسلامية من أهل الشام - احتفظوا لمدة طويلة بعادات أجدادهم، وذلك في بيئة طبيعية تشبه من عدد من الوجوه طبيعة وطنهم القديم. إلى جانب هذا علمت الهجرة التي شجعها عبد الرحمن الداخل على زيادة طبع إسبانيا بالطابع الشامي. ومع مرور الوقت ستصيح هذه المؤثرات الشامية - منذ عبد الرحمن الثاني الأوسط - بحضارة بغداد. ويمكن القول إجمالاً أن إسبانيا المسلمة ستأخذ شكلاً شرقياً تماماً لمدة قرن جديد في معظم مظاهرها الإدارية والاجتماعية، وذلك بتأثير دمشق في أول الأمر ثم عن طريق بغداد مباشرة، بعد هذا.

أما عن المسلمين الجدد أو المولدين، فرغم أنهم كانوا يكونون الأغلبية العظمى لأهل إسبانيا الإسلامية، فإنهم سيسببون لخلفاء عبد الرحمن الداخل متاعب بلغت في بعض الأحيان درجة كبيرة من الخطورة. ونظراً لقلّة الوثائق فإنه لا يمكن معرفة موقف عبد الرحمن الأول. إزاءهم بدقة، ولكن لما لم يكن العهد بعيداً بافتتاح البلاد على أيدي العرب فمن المحتمل أن ذكريات استبداد القسوط كانت ماثلة في أذهان الزراع والعامّة من سكان المدن، وأن هؤلاء لم يكونوا ليطالبوا أكثر من حياة هادئة، وعلاقة طيبة مع الحكومة المركزية. وزيادة على ذلك فإن الأمير الذي كان يحتقرهم بعض الشيء من غير شك رأى أن من مصلحته مداراتهم وذلك في غمار الفتن التي أثارها العرب والبربر وكان عليه قمعها. الأحد 17 محرم 748 هـ / 1343 م. وقاد ملوك بني الأحمر الجيوش بأنفسهم أثناء مواجهتهم الحربية مع الإسبان، وقام عدد منهم بواجبهم العسكري أحسن قيام. وأشاد عدد من المؤرخين بشجاعتهم وإقدامهم في مواجهة العدو، وكما ذكرنا سابقاً إن هذه الصفات كان يعتمد عليها كأساس لاختيار مسلمي إسبانيا حكامهم وملوكهم ومنهم من كان يؤم الناس في صلاة العيدين مثل السلطان أبي الحجاج الذي اغتيل أثناء سجده الأخيرة من صلاة عيد الفطر يوم فاتح شوال عام 755 هـ / 19 أكتوبر 1354 م. أما إذا تأملنا الحياة الخاصة للسلطان، فنجد أنه كان يقيم بالقصر، يحيط به رجال حاشيته وحسب بعض المصادر لم يحط سلاطين بني الأحمر أنفسهم بالعظمة والأبهة، بل غلب على غالبيتهم مظاهر التقشف. وتشير غالبية المصادر إلى حالة محمد الأول عند دخوله غرناطة، فقد بدا عليه أثر التواضع، فلم يكن يرتدي «سوى شاية مضلعة أكتافها ممزقة»، وتشير المصادر أيضاً إلى بساطة السلطان محمد الخامس الذي كان يتردد مع حاشيته على شوارع غرناطة وكان يرتدي لباساً غير مترف، فأنست العامة بقربه، وسكنت

الخاصة إلى طيب نفسه، في حين ذكر ابن خلدون أن ملوك بني الأحمر كانوا يرتدون ملابس موشاة بالذهب اقتداءً بمن سبقوهم من الملوك، وأكد ابن سعيد أن ملابسهم كانت شبيهة بملابس النصارى المجاورين لهم. ويبدو من هذا الاختلاف في آراء هؤلاء المؤرخين حول لباس ملوك بني الأحمر أنه في بداية الدولة النصرية كان لباس الملوك لباساً متواضعاً وبسيطاً، بينما طبع بمظهر الابهة والعظمة لاحقاً عندما أرسى الملوك اللاحقون دعائم دولتهم وثبتوا ركائزها. أقام ملوك بني الأحمر بقصر الحمراء، الذي رودوه بأسوار وأبراج منيعة وبارزة، تشرف من فوق على المدينة حيث: الشرفات البيض، والأبراج السامية، والمعازل المنيعة، والقصور الرفيعة تغشي العيون وتبهر العقول. وكانت هذه القصور تحيط بها الجنان الخضراء، والأدواح الملتفة والمناظر الرائعة. أما احتفالاتهم التي كانوا يقومون بها فهي تتم في مناسبات متعددة، كمناسبة إعدام أولادهم، أو خروجهم في رحلات للصيد. وكان يعقد أثناء هذه الاحتفالات عدة مجالس، يحضرها كبار موظفي الدولة، ويرأسها عدد من الشعراء الذين كانوا يحصلون على عدد من الهدايا، وعدد من الكتب والملابس من السلاطين ورجالات الدولة، إلى جانب امتلاك أراض خاصة كانت تدعى بـ «المستخلص» تحيط بأسوار غرناطة، وتزخر بالزراعة والحيوانات المنزلية. وكان يباشر هذا المستخلص السلطاني ويسير أموره «عامل المستخلص». وسوف نقودنا دراسة قامت مملكة الأحمر في غرناطة على يد محمد بن يوسف بن نصر الغالب بإالله. وتذكر بعض المصادر التاريخية أنه عقب صلاة الجمعة يوم 26 رمضان 629 هـ/ 16 يولية 1231، أعلن أهل أرجونة في مسجد المدينة مبايعة يوسف بن الأحمر ملكاً عليهم، فبعثوا إليه ودخلوا في طاعته، وأرسلوا إليه بيعتهم مع أبي بكر بن الكاتب وأبي جعفر التبرولي، فلبى ابن الأحمر دعوتهم وتوجه إلى المدينة فدخلها واتخذها عاصمة للمملكة.

سمي هذا الملك - وخلفاؤه من بعده - بأمير المسلمين، وقد خوطبوا بألقاب الخلافة من باب التشریف، فمحمد الأول لقب بأمير المسلمين، ومحمد الثالث بالمنصور بفضل الله والناصر لدين الله، وأبو الجيوش لقب بالمستعين بالله، والمؤيد بالمنصور، كما حمل بعض السلاطين ألقاباً لها دلالات خاصة مثل محمد الشيخ، وكلمة «شيخ» لقب بها لتقشفه وتصوفه. ولقب السلطان محمد الثاني بـ «الفقيه» لاهتمامه بالعلم والعلماء، ومجالسته لهم وتفقهه. وأشار القلقشندي إلى أن لقب الفقيه من ألقاب العلماء، وكان نادر الاستعمال عند أهل مصر، بينما كان منتشرًا بين أهل المغرب. ولقب محمد الثالث بلقب «المخلوع»؛ لأنه خلع عن عرشه على يد أخيه إسماعيل، إضافة إلى أوصاف أخرى لقب بها ملوك بني نصر وهي أوصاف ملئت بالمدح والثناء، كالمجاهد، والمقام العالي، والحضرة العلية، والمجاهد في سبيل الله، والإمام الهمام، الإمام العادل. أما مقر الحكم في حمراء غرناطة فكان يذكر «حرسها الله» غالبًا في المراسلات السلطانية. أما تسمية سلاطين غرناطة ببني الأحمر كما أشرنا من قبل فترجع إلى وجود شقرة في جدهم الأكبر عقيل بن نصر، وهو أول من لقب بهذا اللقب، وذلك لشقرة غلبت عليه، واستمرت هذه الشهرة في بعض أفراد بني الأحمر كمحمد السادس (761 هـ / 1362 م) الذي كانت بعض المصادر الإسبانية تطلق عليه اسم برميخو Bermejo بمعنى اللون البرتقالي. وكان توقيع بني الأحمر في أول الأمر: «لا غالب إلا الله»، وهو شعارهم المعروف. ورأينا في الفصل الخاص بالعمران كيف زينت ونقشت قصورهم بكتابات متعددة تخللها شعار: «لا غالب إلا الله»، وأيضًا حماماتهم وقاعاتهم ومساجدهم. وبعد هذا الشعار اختار بنو الأحمر شعارًا آخر هو علامة «صح هذا».

امازات بعض توقيعاتهم بخفة الروح ودعابة نادرة، مثال ذلك توقيع السلطان محمد الفقيه على رقعة شخص كان يطلب صرف بعض الشهادات الحكومية. إلى جانب التوقيع، استعمل ملوك بني الأحمر الختم أو (الخاتم). ولم يكن مستحدثاً في عهدهم، بل كان سائداً في الدول التي سبقت الإسلام وما بعده، إذ كان يوضع على الصكوك والرسائل. وقد عرف الختم تطوراً ملحوظاً عبر التاريخ، انتقل من دس الورق كما كان سائداً بالمغرب، ومن تلصيق الصحيفة بعد طيها كما كان متداولاً ببلاد المشرق، إلى استعمال نقش مميز على الشمع الملصق على الرسائل، إلى أن انتهى الأمر أخيراً باستعمال خاتم من الذهب يرصع في الغالب بقطع دقيقة من الياقوت والزمرد ويكون كشارة شارة مميزة للسلطان. وكان السلاطين النصريون يوقعون المعاهدات بأنفسهم، ويذكرونها في نص المعاهدة ويضعون عليها طابع الذهب المعلق بشراب الحرير. أما لباسهم فكان لباساً ملوكياً موشى بخيوط الذهب، سائرين فيه على سبل من سبقوهم من الملوك، كما كانوا يلبسون العمامات وذكر ابن الخطيب أن السلطان أبا الوليد إسماعيل عندما سقط تحت طعنات قاتلة كان مرتدياً عمامة على رأسه. قال واحتمل السلطان على بعض دوره وبه رمق للزوق العمامة بفوهة ودجه المبتور، ففاض لحينه. وقال ابن سعيد أثناء حديثه عن غرناطة وأهلها: إن لباس سلاطينهم وأجنادهم كان شبيهاً بزي النصاي المجاورين لهم، والشيء نفسه أكدّه ابن خلدون قائلاً: إنهم يشبهون بالنصارى في شاراتهم وعوائدهم وحتى في رسم التماثيل على جدران مصانعهم وبيوتهم. اتخذ ملوك بني نصر اللون الأحمر لوناً لأعلامهم وراياتهم، كما اتخذوا لهم مقصورة في المساجد للصلاة وكان ينظم لهم أثناء حركاتهم وجولاتهم في جهات المملكة موكبٌ خاصٌ يرافقه موكب من الطبول والبند يسمى «الساقّة». أما ما يخص وراثة العرش، فالمصادر لم تشر

إلى الكيمية التي يتم بها اختبار ولي العهد داخل أسرة بني الأحمر؛ إذ لم تكن هناك قواعد محددة يتم بمقتضاها وراثته، فنجد أن السلطان محمد الأول قام في حياته بتعيين ولده محمد الثاني ولياً للعهد 662 هـ/ 1264 م، كما أن محمد الرابع تولى الحكم بعد وفاة والده في 27 رجب من 725 هـ ولم يكن قد بلغ بعد سنته العاشرة، وتولى الحكم بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول وهو ما زال مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره وبويع لمحمد بن يوسف عام 739 هـ/ 1338 م وكان صبيّاً لا أثر فيه للإنبات ولا حركة تدل على بلوغ، بل هناك بعض السلاطين من شاركه الحكم ولي عهده، مثل محمد الفقيه الذي قام بالأمر بعد أبيه، وباشره مباشرة الوزير أيام حياته وأيضاً أبي عبد الله محمد الثالث المدعو بالملخول الذي تهنأ العيش مدة أبيه، وتولى السياسة في حياته، وباشر الأمر بين يديه. وبقي حكم ملوك بني الأحمر في غرناطة طيلة قرنين ونصف من الزمن قبل سقوطها في أيدي الإسبان دون أن ينافسهم في ملكها أحد. أما على المستوى السياسي، فقد سار ملوك بني نصر في حكمهم كغيرهم من ملوك العصور الوسطى على مبدأ الحكم المطلق؛ فكان السلطان يستأثر بكل سلطة حقيقية، ويباشر أموره بنفسه، وكان من طبيعة هذا النظام التنافس للوصول إلى المناصب والتباهي بالسلطة والتفاخر بالحكم.

انحصرت السلطة بهذه الأسرة في يد السلطان الذي يتولى شؤونها العامة وحمايتها، ويتصرف في أموال بيت المال والتي كان مصدرها الزكوات والضرائب على الأرض، والملاحة والفلاحة، والتجارة والمكوس المفروضة، والمزارع الخاصة والمصادرات. وإذا تحدثت المصادر عن رئيس للدويان، ووزير وقائد حربي، فدورهم لا ينحصر إلا في مراجعة القرارات والأحكام الصادرة عن السلطان، وللملك وحده حق القرار فيها إما بالقبول وإما بالرفض. وانفراد السلطان بالحكم لم يكن يمنعه من أن يستعين بالزعماء والقادة ورجال

الحاشية، يستشيرهم في سياسة الدولة، ويناقشهم في أمورها الداخلية والخارجية وفق ما تقتضيه المصلحة العامة وحسب ما تملحه الظروف والأحوال في مجلسه الذي كان ينظمه يومين في الأسبوع وهو ما يعرف «بالديوان»، ويتم عقده بالمشور. وصف ابن الخطيب محمدًا الشيخ بأنه: كان آية من آيات الله في السذاجة والسلامة والجهورية، جنديًا ثغريًا، شهمًا أيديًا، عظيم التجلد، رافضًا للدعة والراحة، مؤثرًا للتكشف والاجتزاء باليسير، متبليًا بالقليل، بعيدًا من التصنع، جافي السلاح، شديد الحزم، موهوب الإقدام، عظيم التشمير محتقرًا للعظيمة، مقربًا لصنفه، مصطنعًا لأهل بيته فقط في طلب حقه، مباشرًا للحروب بنفسه، تتغالى الحكاة في موقع سلاحه ورنه دبوزه، يخصف النعل، ويلبس الخشن ويؤثر البداوة، ويستشعر الجلد في أموره، كما أشاد ابن سعيد المغربي بشجاعة هذا القائد وجهاده في مناوره العدو، وأكد أن هذه الصفات عند مسلمي إسبانيا كانت هي الأساس عند اختيار ملوكهم في هذه الفترة العصيبة، ثم وصف ابن الخطيب ثاني ملوك بني نصر وأساس أمرهم محمدًا الثاني المعروف بالفقيه كان هذا السلطان أوحده الملوك جلالة وصرامة وحزمًا، ممدد الدولة الذي وضع ألقاب خدمتها، وقدر مراتبها، واستجاد أبطالها، وأقام رسوم الملك فيها، واستدر جباتها، مستظهرًا على ذلك بسعة الذرع، وأصالة السياسة، ورصانة العقل، وشدة الأسر، ووفور الدهاء، وطول الخنكة، ومملوءة التجربة. كان مقر عرش سلاطين بني نصر بقاعة السفراء، والتي كانت مقرًا لاستقبال الوفود والسفراء ورجال الدولة، يعقد الملوك اجتماعات هي كمجالس للشورى يستعينون بها في مناقشة أمور الدولة وشؤونها الداخلية والخارجية، ويتم عقدها بدار العدل بقصبة الحمراء يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، يحضرها السلطان والرؤساء من أقاربه وأعوانه ونحوهم. وتفتح هذه الاجتماعات بتلاوة القرآن

الكريم أولاً ثم الأحاديث، ثم ترفع المظالم إلى السلطان ويشافهه طلاب الحاجة، كما يتم أثناء هذه الاجتماعات استقبال الوفود، وتخصص أوقات فيها للإلقاء بعض القصائد من طرف الشعر. وكان من عادات سلاطين بني نصر القيام برحلات تفتيشية لتفقد أحوال مملكتهم. وقد وصف ابن الخطيب - الذي كان شاهد عيان - في مقامه: خطرة الطيف ورحلة «الشتاء والصيف» رحلة السلطان النصري أبي الحجاج يوسف الأول التفتيشية. كانت إسبانيا الإسلامية تتبع عقب الفتح مباشرة، وكان والي المغرب العربي يقوم باختيار حاكم إسبانيا الإسلامية ثم رأى الخليفة «عمر بن عبد العزيز» أن تكون إسبانيا الإسلامية ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة إدراكاً منه لأهمية إسبانيا الإسلامية وللدور الذي تقوم به في الفتوحات ولصراعها مع ملوك الفرنجة. ولما توفي «عمر بن عبد العزيز» عاد تعيين والي إسبانيا الإسلامية إلى والي المغرب العربي لكن بمصادقة الخليفة، وبعد وقعة بلاط الشهداء عادت الخلافة إلى تعيين والي إسبانيا الإسلامية من جديد، ولما اضطرت الأمور أصبح والي المغرب العربي هو الذي يعينه حيناً وأحياناً جماعة الزعماء والقادة في شبه الجزيرة، فقد استقر رأيهم مثلاً على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهري (129 هـ / 747 م) خشية تفاقم الفتن دون مصادقة لا من والي المغرب العربي ولا من الخلافة. ثم جاء بنو أمية لحكم إسبانيا الإسلامية واكتفوا بلقب الإمارة رغم أن بلاطهم كان ينافس بلاط العباسيين في قوته وبهائه إلى أن جاء عهد «عبد الرحمن الناصري» ورأى أن الأوضاع قد تغيرت وأن الفاطميين قد أقاموا لهم خلافة في المغرب فأصدر مرسومًا بتحويل الإمارة الأموية إلى خلافة، وتلقب هو نفسه بلقب أمير المؤمنين، وبلغت الخلافة إسبانيا الإسلامية أوج نفوذها السياسي والأدبي في عهد الناصر وابنه الحكم المستنصر، ثم جاء «محمد بن أبي عامر» فجعل نفسه حاكمًا مطلقًا على إسبانيا الإسلامية واتخذ

سمات الملك وتلقب بالحاجب المنصور، وأضحت الخلافة في زمنه وزمن أبنائه اسمًا بلا مسمى. ثم تبوأ «محمد بن هشام» الملقب بالمهدي الخلافة لتنتهي ثنائية السلطة بين الأمويين والعامريين، لكن ذلك كان بداية فترة مشحونة بالفتن والفوضى، وقامت خلافة في أكثر من مدينة في مالقة وقرطبة وإشبيلية وغيرها، وانتهى الأمر بتمزق إسبانيا الإسلامية إلى ولايات ومدن مستقلة وظهور ما يعرف بدول الطوائف.

الوزارة في إسبانيا الإسلامية

لم يلجأ الأمويون في إسبانيا الإسلامية إلى نظام الوزارة باختصاصاته التي يعرفها المشاركة، واعتمدوا في تسيير أمور دولتهم على رجال من البيوت الشهيرة دون أن يمنحهم ألقابًا بعينها، حتى قادة الجيوش حملوا لقب القائد في زمن الحملة العسكرية فقط، ولكن ظهور شخصيات بارزة جعل من الضروري أن تختص تلك الشخصيات بمهام وألقاب محددة، لهذا أصبح «عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث» قائد الجيوش، وحمل مع ذلك لقب الحاجب، وتولى كل اختصاصات رئيس الوزارة في المشرق، وأضحت الحجابة هناك مثل رئاسة الوزارة وأصبح الحاجب الشخصية الثانية بعد الأمير، كذلك تم توزيع المهام الإدارية بين رجال البيوتات المشهورة، فهذا خازن (وزير المالية) وهذا للأمن (الشرطة الداخلية) وهذا للمنشآت (الأشغال العامة). وحمل هؤلاء لقب الوزير على أنه تشريف، ومنذ أيام «عبد الرحمن الأوسط» أصبح وزير الأندلس له نفس مهام واختصاصات الوزير في المشرق، كما كان هناك وزراء دولة يكلفهم الأمير بما يشاء في أي وقت.

أما أهل البيوتات الذين شغلوا هذه المناصب فهم موالى بني أمية وفروعهم، ثم انضمت إلى هؤلاء أسر قربها الأمراء، بعضها عربي وبعضها

مولد أو مستعرب وكثير من هؤلاء من أصول بربرية من ذوي الكفاءات وللأمويين أسلوبهم في إقامة الوزراء، ذلك أن من ترفع وسادته من بيت الوزارة يعتبر مقالا، وأحيانا كان يمنح بعض الموظفين الكبار مثل حاجب المدينة أي المحافظ لقب الوزير، وعندئذ كان يدعى الوزير صاحب المدينة. وكانت الوظيفة الكبيرة في الأندلس يطلق عليها لقب «خطة» فيقال «خطة الوزير» أو «خطة الكتابة» (الإنشاء) أو خطة المظالم (الشكاوى) أو «خطة القيادة»، وكانت خطة القضاء من الخطط الكبرى، ويقصد بها قضاء قرطبة أو الجماعة، ولا يتولى صاحبها قضاء قرطبة وحدها بل له حق تعيين القضاة أو عزلهم في المدن والأقاليم الأخرى، وهؤلاء يعتبرون نوابًا عنه ويعتبر هو مرجعهم، وقاضي الجماعة هو الشخصية الثالثة بعد الأمير والحاجب، ولذا تطلب الأمر التدقيق عند اختياره، ورغم مكانة القاضي، فإن الكثيرين لم يرغبوا في شغل هذا المنصب؛ لأنهم قد يجدون حرجًا في أداء مهام وظيفتهم ضد كبار الموظفين أو مع أمير لا ترضيه أعمالهم الخريصة على العدالة وحدها. وفي أواخر عهد الدولة العامرية تولى الصقالبة الخطط الكبرى، ثم تولى الفتيان العامريون الحجابة لآخر الخلفاء الأمويين، واستبدلوا بعد ذلك برئاسة المدن والولايات، وظهر في عهد الدولة العامرية بدعة جديدة هي إسناد الحجابة إلى الأطفال فقد استصدر عبد الملك - مثلا - أمرا من الخليفة «هشام» المغلوب على أمره بتعيين ولده الطفل «محمد» في منصب الحجابة ولقبه بلدي الوزارتين . . كذلك استحدثت بالوزارة عدة خطط جديدة مثل خطة الأسلحة وخدمة الوثائق وخطة خزانة الطب والحكمة . . . إلخ.

الجيش والأسطول،

عبر إلى شبه الجزيرة جيش الفتح مكوناً من العرب والبربر «العرب العاربة»، وقام البربر بدور مهم في تكوين قوى الأندلس دفاعاً وهجومًا، ولما كون عبد الرحمن الغافقي جيشه بهدف غزو بلاد الفرنج، كان البربر «العرب العاربة» من عناصره المهمة، وبقيت القيادة بيد الضباط العرب، ثم ظهر خلاف بين العرب البربر، بسبب إحساس البربر باستيلاء العرب على القيادة لأنفسهم فقط ثم كانت ثورة البربر «العرب العاربة» في المغرب وانتقال بلج بن بشر القشبي إلى إسبانيا الإسلامية الشيء الذي رجح كفة العرب غير أن الجيش الأندلسي ما لبث أن انقسم إلى العرب الشاميين وأنصار «بلج» والعرب والبربر المحليين، وقامت الحرب الأهلية، إلى أن جاء يوسف ابن عبد الرحمن الفهري فأعاد تنظيم الجيش وأصلحه، وجعله جيشاً أندلسياً، يغزو ويرد هجمات نصارى الشمال. ثم جاء «عبد الرحمن الداخل» فاتهم جنوده المتطوعة والمرتزقة (100) ألف مقاتل، بخلاف الحرس الخاص الذي تكون من (40) ألفاً من الموالي والرقائق والبربر. وكذلك وضع «عبد الرحمن الداخل» نواة الأسطول بإسبانيا الإسلامية لأنه أقام قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية، أما قيام الأسطول بإسبانيا الإسلامية فيعود إلى ما بعد ذلك عندما قام النورمانيون بغزو ثغور الأندلس فعنت الحكومة بأمر الأسطول وإنشاء السفن وبالتحصينات البحرية، كما أقامت أكبر دار لصناعة السفن في ميناء الوادي الكبير تجاه إشبيلية. وقد اكتسب الجيش كثيراً من الدرية والمران في تعامله المستمر مع الثورات والغزوات، وقد بدل الناصر جهداً كبيراً لتقويته، ومنحه غاية الاهتمام، ووفر له الأسلحة والعتاد، وفي الوقت نفسه اهتم بالأسطول وأنشأ له وحدات جديدة، وجعل مدينة المرية مركزه الرئيسي، وبنى بها أكبر دار صناعة، ووصل عدد الوحدات في زمنه إلى (200) سفينة

مختلفة الأحجام والأنواع، بخلاف أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية، وكان أسطول الناصر من أقوى الأساطيل، وسيطر به على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية. وفي عهد المنصور بن أبي عامر وصل الجيش إسبانيا الإسلامية إلى أقصى قوته وضخامته وقد اعتمد على البربر الذين استقدمهم من بلاد المغرب وغمرهم بعتاياه، وكان في جيشه كثير من المرتزقة والنصارى من المستعربين، وقد بنى المنصور إسبانيا الإسلامية قوة لم تعرفها لا من قبل ولا من بعد، وبلغ عدد الفرسان في زمنه (12100)، وعدد الرجال (26000) وهذا هو الجيش الرابط الذي كان يتضاعف وقت الصوائف، وقد وصل في إحداها إلى (46000)، وزاد عدد المشاة حتى تجاوز المائة ألف. وقد نجحت القوات الإسلامية في السيطرة على مناطق الحدود؛ بفضل ما تمتعت به من قوة واستعداد، وكانت الخلافة حريصة على أن توفر لها الأسلحة والمؤن وكل ما تحتاج إليه، وكان بعض الحصون في هذه الأماكن أشبه ما يكون بمدينة كاملة. وإلى جانب جيش الحدود وكان هناك جيش آخر يقيم في الزهراء يسمى جيش الحضرة يقوده الخليفة بنفسه أو من ينييه، وإذا خرج الخليفة بنفسه جمع بين قيادة الجيشين. وإذا جاء وقت النفير يأمر الخليفة بالاستعداد، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى «البروز»، وتتوافد الجنود من كل ناحية وتنزل في سهل فسيح يسمى «فحص السراق» إلى الشمال من قرطبة، ثم يؤدي بسراق الخليفة ويوضع وسط الفحص، وتنصب فرق الجنود خيامها ثم تقبل قوات المتطوعين حسبة لوجه الله تعالى، ويستمر البروز شهراً، ثم يخرج الخليفة بجيشه، ويتنقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم إليه جيش الثغور، وهنا تبدأ الصائفة أي العملية العسكرية الضيفية التي تستمر شهرين أو نحوها في غزوها لأراضي العدو⁽¹⁾.

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 87.

السياسة الداخلية لعبد الرحمن،

تتلخص في سياسة الترغيب والانشاقات الاولى ثم الصراع ضد الثوار: أصبح عبد الرحمن سيد قرطبة ولكنه لم يعد بعد أميراً لكل إسبانيا الإسلامية، وعلى ذلك فبمجرد استقراره بدار الإمارة (مقر الولاية) بقرطبة بدأ ينفذ البرنامج الذي رسمه لنفسه والذي يتلخص في تثبيت ملكه والقضاء نهائياً على مقاومة يوسف الفهري والصميل اللذين رغم انهزامهما بالمصارعة، لم يأسسا من السيطرة على الموقف من جديد بعد ذلك كان عليه أن يضع حداً للنزاعات العصبية والحروب الداخلية التي كانت سبباً في اضطراب البلاد منذ الفتح. أول عمل قام به عبد الرحمن هو تنظيم ذلك الجيش المختلط الذي هيا له النصر، وأحكام قيادته وتطهيره من العناصر المشكوك في إخلاصها منه، واختيار القواد الذين يمكن الاعتماد عليهم من أحرار وموالي. ثم إنه فتح أبواب الأندلس على مصاريعها لدخول الأمويين الذين نجحوا من مطاردة العباسيين رغم خطورة هذا العمل. أما فيما يختص بالمنهزمين في موقعة المصارعة فإنه استعمل إزاءهم سياسة الترغيب والمصالحة على سبيل التجربة، وذلك قبل اللجوء إلى العنف. وكذلك عمل على دفن الخصومات العصبية. وكان معنى هذا أنه أراد أن تكون هناك رابطة توحد بين كل عناصر الدولة الأندلسية الجديدة بمعنى أن يكون سكان الجزيرة أندلسيين أولاً وقبل كل شيء، كما يرى برفنسال.

ينفع معالم السياسة الداخلية التي سار عليها عبد الرحمن طيلة حكمه وعن مدى النجاح الذي أحرره في تثبيت أقدام الأمويين في البلاد وكان مستقبل الإمارة الأموية رهيناً بتصرف عبد الرحمن في هذه السنوات العصبية، فقد كان غريباً عن البلاد لا يعرف عن أحوالها الكثير، ولم يكن في استطاعته

أن يطمئن إلى العصبيات التي ساندته في البداية اطمئناناً كبيراً، لم يشك في إخلاص موالي بني أمية ولكنهم لم يكونوا أكثر العرب نفوذاً في البلاد، وأما اليمانية فلم يكن تأييدهم له خالصاً إنما كانوا يرغبون في أن يستعيدوا مجدهم القديم وأن يأخذوا ثأرهم كاملاً من الحجازية وكذلك كان حال البربر، وفي نفس الوقت كان الحجازية موتورين مما نالهم من هزيمة وكان على عبد الرحمن أن يجذبهم إليه، ثم هنالك أهل البلاد من مسيحيين ومسلمين.

- وكان عبد الرحمن يعتقد في البداية أن الرحمة والعدل والسلام هي البوتقة الكبيرة التي قد تلدوب فيها هذه الخلافات وتذهب بهذه الفتنة لينعم كل فريق في ظلّه بالنعمة والرحمة. - وكان يريد أن يقر السلام في البلاد لتعيد إسبانيا الإسلامية وحدتها تحت لواء واحد؛ ولهذا فتح بلاد إسبانيا الإسلامية أمام الأمويين القادمين ومواليهم، وكانت أنباء نصره تنتشر في البلاد. - وظهرت أرستقراطية قرشبية في إسبانيا الإسلامية أعفاها من الضرائب ومنحهم الأموال كما أرسل بعثة إلى الشرق برئاسة القاضي معاوية ابن صالح للبحث عن بقايا بني أمية ومواليهم وترغيبهم في الرحيل إلى إسبانيا الإسلامية. ولكن يبدو أن العصبيات المتنازعة لم تكن تفهم لغة السلام بل رأى فيها كل فريق ما يبيح له أن يتصرف وفق هواه، فانقلبت سياسة المسالمة هذه إلى حرب ضروس للقضاء على هذه العصبيات، وقضى عبد الرحمن أكثر سنى حكمه في مواجهة هذه العصبيات.

حكم ثلاثاً وثلاثين سنة لم يستقر له فيها جنب في قرطبة، ولقد حسب المؤرخون سنوات استقراره في عاصمته فلم تزد على ثلاثة، أما الباقي فقد قضاه في المعسكرات والحملات والحروب. وكان عليه أن يواجه أولاً مشكلة الحجازية في البلاد الذين عارضوه منذ اللحظة الأولى ووقفوا في وجهه

وحاربوه عند قرطبة، ولم تردعهم الهزيمة التي حلت بهم فعادوا إلى الظهور من جديد. وقد فرَّ يوسف الفهري إلى طليطلة لجمع الانصار كما فر الصميل إلى سرقسطة لجمع فلول الحجازية وقد استطاعا أن يدخلوا قرطبة ثم طُردا منها مرة أخرى. وشهدت بلاد إسبانيا الإسلامية كفاحاً مريراً بين عبد الرحمن وبين الحجازية، وهو كفاح امتد في شرق إسبانيا الإسلامية وفي غربها فلماً مال إلى المسألة آخر الأمر نزل على حكمها على أن تحتفظ الحجازية بأملأهم وأموالهم ولا يتعرض لها بسوء، وقد آتاه الوالي بنفسه في قرطبة طائعاً. وقد اعتقد عبد الرحمن أن القضاء على الحجازية وإخماد فتنتها معناه أن سلطانه في البلاد لا منازع فيه فبدأ يقطع الخطبة للمنصور على المنابر. وإذا كان عبد الرحمن قد حل مشكلة الحجازية كما رأينا فقد واجه مشكلة اليمانية الذين ظنوا أن تأييدهم للأمير الداخل قد يبعث لهم مجدهم القديم (وامتيازاتهم القديمة) فلما خاب ظنهم وقفوا في وجهه وناووه وراحوا يزيدون أعداءه الواحد بعد الآخر. فلما بعث المنصور العباسي ابن مغيث الحضرمي وولاه أمر إسبانيا الإسلامية 146 هـ/ 863 م، وعبر البحر من المغرب إلى إسبانيا الإسلامية انضم إليه أعداء عبد الرحمن جميعهم وكان اليمانيون أشد الناس تأييداً له.

يبدو أن الثورة اليمانية أحرزت نجاحاً أول الأمر؛ فقد استطاع العلاء بن مغيث أن يحاصر عبد الرحمن شهوراً في منطقة باجة في غرب إسبانيا الإسلامية غير أن عبد الرحمن حطم حلقات الحصار وهزم أنصار العباسيين هزيمة كبرى، كما قضى على من انضم إليهم من أهل اليمن. وأشعل اليمانيون نار الثورة مرة أخرى مستترين خلف محاولة عباسية أخرى يتزعمها أحد أعمام السفاح، فلم يظفروا بطائل وهزموا مرة أخرى، وظل عبد الرحمن يتعقب اليمانيين بالحرب حتى قضى على ثورتهم تماماً 774 م. ولم تكن بقايا

البربر أقل إزعاجاً لعبد الرحمن من أهل اليمن فقد خاب ظنهم في عب
الرحمن أيضاً وظلوا مادة للفتنة والقلق طيلة حكمه، ويبدو أن هؤلاء الثوار
قد ألفوا مسألة التستر خلف دعوة تهفو إليها قلوب الأئصار، وكما تبني
اليمانية الدعوة العباسية رفع البربر راية العصيان العلوي في الثورة التي
أعلنوها 768م، فقد ادعى زعيمهم نسباً علوياً والتف حوله البربر من كل
ناحية، وكانت هذه الثورة معاصرة لثورات البربر الأخرى في العرب العربي
والمغرب الأقصى. واتخذت حروب عبد الرحمن مع البربر طابعاً طريفاً، فقد
كانت أشبه بحروب العصابات مرة أخرى، وظل عبد الرحمن يتابعهم بالحرب
حتى قتل زعيمهم عام 776 م وتبددت آمالهم ولم يجدوا مفرّاً من الاعتصام
والطاعة. ولم يتهاون عبد الرحمن هذه العناصر الثائرة أبداً إنما ظل يتعقبها
بالحرب كلما أظلت برأسها حتى استقام له زمامها آخر الأمر ليخرج من هذا
الجهاد بجبهة موحدة قد استقام له أمرها. وأظهرت هذه المحنة صلابة عوده
وكشفت عن قدراته وأعلت من قدره بين المعاصرين فتمكنت إمارته الناشئة
من أن تثبت وجودها وتضمن لنفسها البقاء. ويكاد الأمراء الذين ظهروا في
الحياة الإسلامية منذ هذا الوقت فصاعداً أن يسيروا على مخطط داخلي واحد
أساسه إخضاع جميع عناصر المقاومة كخطوة أولى لتحقيق الاستقلال وتوطيد
دعائم الإمارة، خاض الطولونيون والإخشيديون في مصر حروباً داخلية
مشابهة ليبقى سلطانهم ويرتفع صيتهم، وكذلك فعل الأغالبة في تونس
والأدارسة في المغرب الأقصى والكلبيون في صقلية. ولكننا نريد أن نعرف
موقف عبد الرحمن من القوة الإسلامية النامية، من أهل البلاد ثم موقفهم
من هذه المحاولات التي بذلها خلال مدة حكمه. كانت هذه الجالية الإسلامية
تزداد عدداً على مر الأيام بإطراد الدخول في الإسلام، ويتبين من الوثائق
الأندلسية أن عناصر المولدين من مسلمي إسبانيا لم تشترك في هذه الحوادث

الدائمة إنما اعتصموا بالهدوء سواء في المدن أو الريف . فقد كانوا يعطفون على عبد الرحمن إذ يرونه يخلصهم من طغيان الحجازية واليمانية والبربر ، وحتى إذا تخلص عبد الرحمن من عناصر الشغب هذه كلها مهدت الطريق لهؤلاء المولدين أصحاب المصلحة الحقيقية في البلاد لينعموا بالهدوء والاستقرار وليعلو صوتهم في الحياة السياسية والشفافية والاجتماعية في البلاد . ورغم ندرة الوثائق نعتقد أن عبد الرحمن كان يعرف مكن القوة فيهم وأنهم مستقبل الأمة وعدتها ، وكان يعرف كيف يسترضيهم وكيف يجعلهم يؤمنون بأن مستقبلهم مرتبط بمصيره فأمنوا له وأصبحوا مصدر قوته (وتكاد الإمارات المستقلة التي عرفتها الحياة الإسلامية تشترك في هذا الاتجاه ، كلها عملت على كسب ود أهل البلاد الأصليين والأخذ بيدهم والاعتماد على تأييدهم ، هكذا فعل الطولونيون والرخشيدون في مصر ، وهو نفس اتجاه كل من الأغلبية والأدارة ، حتى ليرى بعض المؤرخين أن هذه الإمارات هي تعبير لهذه الجماهير التي أسلمت عن حقها المشروع في الحرية والمساواة). ولكن إذا كان عبد الرحمن قد قضى أغلب سنين حكمه في هذا الصراع العنيف محارباً البربر والعرب ، فما هي القوة التي اعتمدت عليها في هذا النضال؟ كان اتجاه عبد الرحمن لا يكاد يشذ عن منطلق كل الإمارات الإسلامية التي عرفها التاريخ ، من الاتجاه إلى إنشاء جيش قائم يكون أداة الأمير وعدته وسنده في جهوده لتثبيت سلطانه الداخلي والخارجي هو عصبية الإمارة وهو عدتها وبقاؤها يعتمد على قوة هذا الجيش وقدرته على الصمود ، وأقول نجم هذه الإمارات يعود إلى تفوق هذه العصبية بضعف قوة الجيش . كان الظهور الطولوني والإخشيدي يعتمد على جيش قوي وكان هذا الجيش عدتهم في نضالهم من أجل القوة والنفوذ ، وكان جيش الأغلبية أداتهم في سياستهم الداخلية وفي محاولاتهم فتح صقلية ، وكذلك كان الإدارة . لهذا اتجه عبد

الرحمن منذ اللحظة الأولى التي توطد فيها سلطانه إلى إنشاء الجيش القائم الذي لا يتكون من العرب والبربر إنما كان يتألف من الجنود الصقالبة الذين يشترون بالمال ويدربون على الطاعة العمياء للدولة والإخلاص لها. وقد استطاع عبد الرحمن أن يكون جيشاً من هؤلاء المرتزقة بلغ عددهم نحواً من أربعين ألفاً وقفوا من خلفه في حروبه كلها وخدموه أجلّ خدمة وتفانوا في الإخلاص. بدأت سياسة الترغيب التي انتهجها عبد الرحمن بمجيء أعداد من المهاجرين الجدد واستقرارهم بإسبانيا. وذلك أن أنباء نجاح عبد الرحمن وانتصاراته في إسبانيا الإسلامية سرت بسرعة في المغرب العربي والمشرق، فأسرع كثير من أفراد أسرته المنكوبة للحاق به بالجزيرة، وواصل غيرهم الطريق إلى هناك طوال عهده المديد. وكان عبد الرحمن يحسن استقبال أقربائه ويغمرهم بالهدايا والأعطيات ومظاهر التشريف، وسيكون هؤلاء بقرطبة طبقة ملكية أرستقراطية ستعرف باسم «القريشيون» بدلاً من الأمويين: هؤلاء كانت لهم كثير من الامتيازات فهم معفون من بعض الأعباء المالية، ولهم حق حضور الحفلات الرسمية، كما كانت لهم أرزاق (مرتبات) كبيرة. ولكي يشجع هجرة الأمويين ومواليهم إلى الأندلس أرسل عبد الرحمن بعثة إلى المشرق برئاسة القاضي معاوية بن صالح الحضرمي وكلفه بإحضار أخته، وهذا لم يستطع القاضي أن يفعله إذ أنهما كانتا تعيشان عيشة هادئة وتلقيان معاملة طيبة من جهة العباسيين، وتمتعان بثروة كبيرة ففز عليهما مغادرة الشام إلى أقصى الغرب من العالم الإسلامي حيث كان لأخيهما ذلك المركز الكبير. وبعد قليل من استقرار عبد الرحمن بقرطبة رأى أن سياسة المسالمة والمصالحة لا تأت إلا بنتائج عكسية: فتركه أبواب الأندلس مفتوحة والميدان حرّاً أمام الساخطين والمغامرين الذين كانت تعج بهم إسبانيا كان من الطبيعي أن يتعرض لأخطر الشرور، فكان لابد له من انتهاز سياسة حازمة شديدة.

فمنذ انهزام السوالي القديم ومستشاره الصميل قرب أبواب قرطبة لم تتوقف نشاطهما فلذهب السوالي إلى طليطلة ليحشد جيشاً بينما سار الصميل إلى إقليم جيان حيث كان جنده على أمل تعبئة أعوانه من القيسية. ولحق يوسف ومعه جند سرقسطة وطليطلة بالصميل ثم تقدم الاثنان ببعض قواتهما عملاً على اجتذاب عبد الرحمن نحوهما بينما دبرا ذهاب بقية قواتهما إلى قرطبة للاستيلاء عليها فجأة. وفعلًا كادت هذه الخطة أن تنجح بل أن العاصمة وقعت بين يدي ابن يوسف الفهري، وهو أبو زيد، ولكن هذا الأخير عندما شعر بعودة عبد الرحمن لمهاجمته لم يصبر على تملك قرطبة بل غادرها ولحق أبيه بالبيرة.

بعد ذلك قام عبد الرحمن بمطاردة يوسف عبر شرق إسبانيا الإسلامية حتى غرناطة وربما دارت مباحثات بينهما، إذا انتهى الأمر بأن طلب يوسف والصميل الأمان من الأمير الأموي واشترطا أن يحتفظا بممتلكاتهما. ووافق الأمير الذي فضل ألا يتهك قواه في مناخرة خصميه، واشترط هو الآخر على يوسف أن يدفع إليه بابنيه كرهينة. ورجع وفي صحبته السوالي القديم ومستشاره إلى قرطبة 139 هـ / 756 - 757 م. ويخضوع يوسف والصميل اعتبر عبد الرحمن أن سلطانه أصبح غير منارع بإسبانيا، فأعلن اللعنة على العباسيين من أعلى المنابر، وقطع الخطبة لأبي جعفر المنصور في مساجد إسبانيا الإسلامية. وفي قرطبة عاش يوسف والصميل لمدة من الوقت تحوطهما مظاهر التبجيل والاحترام وكان الأمير لا يستتفك استشارتهما في المناسبات والاستماع إلى نصيحتهما. ولكن حدث بعد ذلك أن حنَّ يوسف إلى سلطانه القديم وشجعه بعض الساخطين ممن فقدوا نفوذهم القديم ففر وأعلن العصيان ضد عبد الرحمن ولبأ إلى ماردة، وهناك جمع جيشاً كبيراً تعداده حوالي 20 ألف رجل أغلبهم من البربر وساروا على رأسهم نحو قرطبة. ولكنه انهزم في

الطريق أمام قوات أمراء إشبيلية من أتباع عبد الرحمن (من أقربائه المهاجرين حديثاً) واضطر إلى الهرب إلى إقليم طليطلة، حيث لقي نهاية دامية إذ مات قتيلاً على أيدي أعوانه 142 هـ / 759 - 760 م، وأرسل رأسه إلى عبد الرحمن. ورأى الأموي أن يتخلص من أعدائه فأمر بقتل أبي زيد بن يوسف وسجن أخيه (الشاب) وكذلك تخلص من الصميل وقضى عليه في السجن حيث كان محبوساً.

خلفاء عبد الرحمن؛

وكان خلفاء عبد الرحمن الأول أمناء على تراثه في جميع المظاهر خصوصاً في السياسة الإدارية (والتنظيمات الإدارية) وقد وصلت هذه التنظيمات إلى القمة في عهد عبد الرحمن الأوسط، فقد استقرت في عهده نظم الحكم واتخذت طابعاً أندلسياً صرفاً، وقد اتجه عبد الرحمن في تنظيمه الإداري إلى (التركيز)، تركيز السلطة كلها في يديه فلا يتم شيء دون موافقته، وتركزت أعمال الدولة كلها في قرطبة في قصر الأمير وفيها دواوين الحكومة (وفيها شارات الحكم)، دور الضرب، ودور الطراز. وضمت حكومة الأمويين في عهد عبد الرحمن الثاني طائفة من الإداريين الأكفاء ومن أبرزهم في تاريخ إسبانيا الإسلامية في ذلك الوقت عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وكان جندياً عظيماً وكاتباً بليغاً، وخلفه في منصب الحجابة رجال ليسوا أقل منه قدرة أو كفاية مثل عبد العزيز بن أبي عبدة واسحق بن المنذر وغيرهم. وتبلورت نظم البلاط ووضعت للبروتوكول أصولاً وقواعد للطبقة الاجتماعية، ووصل تنظيم الدواوين إلى القمة. وكان أهم هذه الدواوين ديوان الخزانة وكان يعهد به إلى أمناء موثوق بهم. وكان الكتاب والوزراء برئاسة الحاجب يجتمعون في المجلس الذي بناه عبد الرحمن في مدخل قصره

يتلقون الرسائل من كافة الولايات ويصدرون الأوامر، وكان لهؤلاء الموظفين رواتب ثابتة تصل إلى 350 دينار في الشهر. وأنشئت الشرطة وكان يرأسها صاحب المدينة ونظمت تنظيمًا دقيقًا وظهرت وظيفة المحتسب وكان يسمى صاحب السوق. وظفر الجيش من عناية عبد الرحمن الثاني بمثل ما ظفر به في عهد هشام والحكم، إذ أبقي على الصقالبة الذين ورثهم عن أبيه وزاد من عددهم بشراء طوائف جديدة من فرسا وغسقونيا وبلاد الفرنج ومختلف ثغور البحر الأبيض المتوسط. وكان يؤتى بهم أطفالاً ويربون تربية إسلامية. وقد أضيفت إلى الجيش في عهده نحو 5000 من المشاة و3000 من الفرسان و2000 من حملة الرماح ونظم الجيش على أحدث النظم، وظهرت فوق من المرتزة يقدمها الإقطاعيون إذا تطلب الأمر. وظهر الأسطول الأموي بصورة واضحة خصوصًا بعد الغارة النورماندية التي وقعت 844 م وأنشئت دار صناعة في إشبيلية. ويبدو أن هذا الأسطول جاوز مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم فبدأ يقوم بعمليات بحرية خارج مياه الأندلس الإقليمية. في 848 م أغارت نحو 300 سفينة من هذا الأسطول العظيم على جزر ميورقة ومنورقة وضمتهما إلى ملك بني أمية، كما خرج أسطول إسبانيا الإسلامية آخر من ثغر طركونة والجزر الشرقية وأغار على ساحل فرنسا الجنوبي فهوجمت مرسيليا والمناطق المحيطة بها، وتوسع هذا الأسطول العربي في عملياته البحرية فأغارت سفنه على شواطئ جليقية بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن مغيث. واشتهر أمراء هذا العهد خصوصًا عبد الرحمن الثاني بحب البناء وهو من تقاليد الأمويين عادة، ففي عهد هذا الأمير أنشئت مدينة مرسية وقلعة ماردة وحصن إشبيلية كما أنشئت قنطرة جديدة على الوادي الكبير ووسع القصر وحملت إليه المياه من جبال قرطبة، وبدأ في بناء الجامع بمدينة جيان 825 م ووسع جامع إشبيلية وكذلك المسجد الجامع في قرطبة الذي وسع مرتين في 833 والأخرى

في 848 م. وتحقق للبلاد استقلال حقيقي في عهد صاحبنا عبد الرحمن، لم يستطع أن يتناول إليها أحد من أمراء المسلمين، وظهر عبد الرحمن الأوسط كأغنى أمراء البحر الأبيض المتوسط فقد ترك له والده الحكم بن هشام دولة مستقرة وأموالاً وفيرة. وارتفعت الجباية من 600 ألف دينار في السنة في عهد عبد الحكم إلى نحو مليون دينار في عهده وكان ينفق دون حساب على الموظفين والجند والمرافق العامة. طبيعة بلاد الأندلس لها حتمية واضحة لا تظهر إلا في أوقات ضعف النظام السياسي فشبّه الجزيرة يتكون من هضبة قديمة تقطعها سلاسل من الجبال مستقرة تحصر بينها وديان طويلة تمتد من الشرق إلى الغرب. كذلك تخترقها أنهار مستعرضة تجري في غالبها من الشرق إلى الغرب في وديان تحفها الهضاب أو الجبال. ومن شأن بلاد هذا مسطحها أن تميل إلى الحكم اللامركزي، على أن تخضع هذه الأقاليم لحكومة مركزية قادرة فعالة، أما إذا ضعفت هذه الحكومة أو تهاوت فتقع الفرقة وتستقل هذه الجزئيات الجغرافية كل بمصيرها. وقد منيت البلاد في العصر الإسلامي بانقسامين: انقسمت بعد عبد الرحمن الأوسط وظلت منقسمة حتى أعاد إليها عبد الرحمن الناصر وحدتها القومية وأعاد للحكومة المركزية سلطتها. ثم انقسمت مرة أخرى بعد هشام المؤيد وسقوط الخلافة الأموية، ولكنها لم تجد أحدًا في مقدرة الناصر أو كفايته لتستعيد وحدتها من جديد، وظلت تتنازعها عوامل الفرقة والانقسام حتى نمت إسبانيا المسيحية لتقضي على ما بقي من رمق المسلمين. لولا عبد الرحمن الناصر لثكرت مأساة غرناطة، ولو كانت الإمارات المسيحية في مثل قوتها على عهد فردناند وإيزابلا لشهد القرن التاسع الميلادي مصرع الإسلام في البلاد. على كل حال منيت البلاد بعد عبد الرحمن الثاني بأمرأ ضعاف غير قادرين، لم يرتفعوا إلى مستوى آبائهم، إنما انصرفوا إلى اللهو فضعفت السلطة المركزية وظهرت

آثار التفتت الجغرافي وأضيفت إليها مظاهر التفتت العنصري الذي عرفته البلاد وانقسامها إلى عرب بربر ومولدين وبقايا القوط. أما الغرب فقد تكونت لهم دويلات في كثير من المدن - وهو أمر لم تشهده البلاد من قبل. وأهم الدول دولة بني حجاج في إشبيلية وكانوا عرباً (خلصاً) من قبيلة لخم اليمنية وكانوا يعتززون بنسبهم القديم وأن يكون لهم ما للأمير الأموي من هيبة وأن يكون لدولتهم من العظمة والقوة ما لدولة بني أمية. فنظم إبراهيم بن حجاج دولته على مثال الدولة الأموية وأحاط نفسه بهالة من الأدباء والمؤرخين ورجال الفن، وقد شجع العلوم والآداب والفنون، فكان من رجال حاشيته ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد كما استقدم قمر البغدادية. وقد ظلت دولة بني حجاج قائمة بإشبيلية حتى جاء الناصر ففقد عليها، وستظهر مرة أخرى في عصر سقوط الخلافة. أما البربر فقد كانوا رغم هجراتهم السابقة أكثر عدداً من العرب واستبد بهم السخط والعصيان فخلعوا أمراء بني أمية وعادوا إلى النظام القبلي القديم واحتلوا مواقع عظيمة الشأن في الأندلس نفسها كمدينة جيان. وكانت أسرة ذي النون البربرية أشهر من قام من البربر، وكانت تتألف من عميدها موسى وأولاده الثلاثة، ودهمت هذه الأسرة كلها بالسيف والنار وعاثت في جميع نواحيها فساداً تحرق وتنهب وتقتل أينما سارت. وكان مولدو إسبانيا الإسلامية الذين صقلتهم مدينة العرب أقل وحشية من البربر وإن لم يقلوا عنهم في بغض الحكومة فاستولوا على ولاية الجوف في الزاوية الجنوبية الغربية في شبه الجزيرة وملكوا عدداً من المدن والولايات واستقلوا بها.

وكان ابن حفصون أكثر هؤلاء قوة وأشداهم بأساً وكان ينزل كورة رية، وقام في معقله (بيشتر) مشيراً سكان الجبال بغرناطة وظل يحكم ويمد نفوذه وسطوته على البلاد التي حوله. بل لقد انبسطت خيله حتى أصبحت على

بعد مرحلة من قرطبة دون أن يدفعها أحد، وظل ابن حفصون على هذه القوة حتى ارتد عن الإسلام ليغري المستعربين بالانضمام إليه، فكان هذا بداية نهايته فقد انفض المسلمون من حوله ولم يبق به النصارى فضعف أمره وزالت دولته على يد الناصر فيما بعد. هكذا كان حال الأندلس في عصر الضعف هذا وأصبحت عمرة الأوصال تبعثرت فيها المقاطعات المستقلة التي صارت أشبه بالضباع منها بالولايات، وارتدت الأمور على بني أمية حلقة وظلاماً وتقلص حكمهم حتى صار يشمل قرطبة وحدها، وسيظل هذا حالها حتى تبعث العناية عبد الرحمن الناصر ليخلصها من بليتها ويرد إليها وحدتها . . .

وجدت الأندلس في هذا الوقت من يخلصها مثل عبد الرحمن ولكنها بعد زوال الخلافة لن تجد هذا المخلص⁽¹⁾. أما فيما يتعلق بالفتنة الداخلية فإنه يلاحظ أن عبد الرحمن الناصر قدر له أن يجني ثمار ما بذله السابقون عليه في عصر الإمارة الأخير، فقد أسهموا بنصيب كبير في الكفاح في الجبهة الداخلية، لكن عبد الرحمن وحده هو الذي جنى الثمار وأنتم الحلقات الأخيرة. وكانت الحالة النفسية لجماهير الناس في الأندلس أشبه بحالتهم النفسية بالأمس في آخر عصر الولاة في السنوات التي برز فيها عبد الرحمن الداخل على مسرح الأحداث، ملوا الخروج والعصيان وكانوا في حاجة إلى شخصية كبيرة القلب تجمعهم، كانت البلاد أشد حاجة إلى القائد السمع التي تتوحد خلفه النزعات والتزوات. وقد ضاق الناس بالاضطرابات الداخلية وما سبته للبلاد من ضائقات فقد أضرت سياسة التجزئة بالحالة الاقتصادية وعرقلت التجارة الداخلية والخارجية، وأدت إلى انخفاض مستوى الدخل وأشاعت القلق بين الناس، وثقل العبء فعلاً على الجماهير التي كانت تتوق إلى عهد تنسم فيه الراحة. لذلك منحت عبد الرحمن تأييدها المطلق وحبها

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 104.

الخالص وتعلقت به أمانها في الاستقرار . وكانت سياسة عبد الرحمن في هذا الميدان سياسة متلازمة مع الأوضاع النفسية لجماهير الناس وللثوار أنفسهم ، فقد كان يعلم أن أكثر الثوار من أسر وعصبية قديمة ذهب عنها سلطانها وولي أوانها تريد إشارة من شخصية أكبر منها نشأة وأوفر قوة . هذه السياسة تسمى سياسة الاستئمان وهي مزيج من الدهاء والمعرفة بطبائع البشر ومزيد من القوة والاستعداد ، فقد كان يخرج للثوار ويحاصرهم ثم يعرض عليهم الأمان والسماحة والعيش الكريم ، وكانوا يصدقونه بما يعد لما عرف به من متانة الخلق والاستقامة ، وكان يفي بما يعد فعلاً فيحمل الثوار إلى قرطبة ويوفر لهم الأموال والمعيشة الكريمة ويعضو عنهم ويقربهم فلم يفكروا في الخروج عليه بعد ذلك . وانتشرت هذه السيرة الطيبة في أرجاء البلاد كلها وعملت عملها في نفوس الثوار الذين ملوا الثورة ، وكانوا يريدون أن يكون استسلامهم كريماً يحفظ لهم أموالهم وعزهم القديم ومجدهم الزائل . وقد أحرزت هذه السياسة نجاحاً كبيراً واستطاع عبد الرحمن في أكثر المناسبات أن يستصفي أغلب الثوار وأن يحل عقدتهم النفسية وأن يجعلهم من أخلص الأتباع .

إلا أن هذه السياسة لم تنجح في مناسبتين ، لم تنجح في القضاء على فتنة بني حجاج في إشبيلية ، أو ثورة ابن حفصون الشهيرة . واضطر عبد الرحمن في هاتين المناسبتين أن يخوض غمار الحرب فعلاً ، فاشتبك قائد جيشه جعفر بن عبد الغفار مع هؤلاء الثوار في معركة دامية . لم تنصر قوات الخليفة أول الأمر ، فعاود عبد الرحمن الكرة بقيادة أبي العباس أحمد بن أبي عبدة ، وتقاتلت جيوش الخليفة في إخلاصها وأحرقت أجفان السيوف حتى يكون النصر أو الموت فاستطاعت أن تطيح ببني حجاج وأن تعيد إشبيلية إلى حوزة الخلافة . وبقي أمامه لكي يستصفي الثورة كلها أن يقضي على ما بقي

من قوات لابن حفصون فقد استمالت سياسة المسألة أغلب أتباع هذا الثائر، ومن عام 913 م اتجه عبد الرحمن إلى مقر سلطان عمر بن حفصون في إقليم رية فاستسلم له رؤساء النصارى والمستعربين واثقين في أمانته، ثم استولى على قرمونة، وفي 917 م مات عمر بن حفصون الذي ظل ثلاثين سنة في ثورة دامية وخلفه ولده جعفر وسليمان، غير أن عبد الرحمن استطاع 927 م أن يضع للمسألة خاتمة بالاستيلاء على حصن يشتر آخر القلاع الثائرة واستسلم بنو حفصون. ولم يخل عليهم عبد الرحمن بالمعاملة الكريمة، ثم استسلم ثائر آخر يدعى عبد الرحمن بن مروان الجليلقي في منطقة ماردة، وفي 932م استسلمت طليطلة فانتصت الفتن وذاقت البلاد الطمأنينة وعادت للإمارة هيبتها القديمة واستردت البلاد وحدتها القومية.

الناصر والفاطميون:

قدر لعبد الرحمن أن يحمي البلاد من خطر آخر فتزداد هيئته؛ ونعني به الخطر الفاطمي، وقد نجح الفاطميون في إقامة خلافة فاطمية في تونس آخر القرن الثالث الهجري معتمدين على تأييد طوائف من أهل المغرب الأوسط كتأييد الكتامين والصنهاجيين واستطاعوا القضاء على بني الأغلب وبني رستم، ثم اتجهوا بفتوحهم صوب المغرب ودخلت قواتهم المغرب الأقصى ووصلت موجات الفتح الفاطمي إلى الدروة، وفي عهد جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز الذي توغل حتى ساحل المحيط. وكانت البحرية الفاطمية في ذلك الوقت قد بلغت أوج القوة وبدأت توسع عملياتها البحرية وتشبك مع الأمويين في البحر، ورأى عبد الرحمن بلاده مهددة من البر والبحر في وقت واحد. بل اكتشفت أن الفاطميين أرادوا أن يتسللوا إلى الجبهة الداخلية وأن ينشروا دعايتهم في البلاد حتى إذا ضمنوا الانتصار وتفرقت الجبهة الداخلية

سهل الأمر على القوس البرية لتجعل من إسبانيا الإسلامية ولاية فاطمية، فأرسلوا الدعاة إلى إسبانيا الإسلامية مستخفين في زي التجار ولهم خبرة بطباع الناس. ويقال إن من بينهم العالم الجغرافي الشهير «ابن حوقل» صاحب كتاب «المسالك والممالك» وقد وفد على إسبانيا الإسلامية في أيام عبد الرحمن الناصر وأعد تقريراً عن أحوال إسبانيا الإسلامية قدمه إلى الخليفة الفاطمي وسم فيه أمراء البيت الأموي بالضعف والعجز وكشف عن مواطن الخلل في مجتمع إسبانيا الإسلامية وانتهى إلى القول بسهولة غزوها وامتلاكها. وثمة شخصية أخرى كانت من رسل الفاطميين وجواسيسهم وإن كانت كتب التراجم لا تشير إليها إلا بإشارات عابرة وهي شخصية أبو اليسر الرياضي وكان فيلسوفاً متكاملاً يصل إلى قلوب الناس بالجلد والمنطق، وكان يتحدث في الفلسفة والرياضيات، ويقال إنه هو الذي أدخل رسائل إخوان الصفاء إلى إسبانيا الإسلامية.

يزعم المؤرخون أنه ترك أثراً كبيراً على محمد بن مسرة فيلسوف الأندلس وأن الرجلين عملاً كثيراً لتمهيد الأمر أيام الفاطميين في البلاد، وكان من الممكن أن تنتهي هذه الدعاية السرية إذا أضيفت إليها الاستعدادات البحرية والبرية إلى النجاح لو كانت إسبانيا الإسلامية يحكمها شخص آخر غير عبد الرحمن. وقد بدأ عبد الرحمن يضع هيكل سياسة مناهضة لهذا الخطر الفاطمي والقضاء عليه، وكان عبد الرحمن يصطنع الأمراء الخارجيين ويعطيهم من المال والقوة بدون حساب، وبهذا كسب ولاء أمراء منطقة سبتة وطنجة. بل نرى عبد الرحمن للمرة الأولى في تاريخ إسبانيا الإسلامية يرسل قوات إسبانيا الإسلامية عبر المضيق لتستولي على هذا الشريط لتأمين سلامة البلاد، فكان في الحقيقة تحولاً من السلبية إلى الإيجابية. كما استطاع بأمواله أن يشتري ولاء فريق من أهل المغرب الأقصى، فكما اعتمد الفاطميون على

الصنهاجية والكتامية جذب إسبانيا الإسلامية إليهم الزناتيين وحالفوهم فكانوا خير أعوانهم، واستمر هذا التحالف في إسبانيا الإسلامية الزناتي فترة طويلة وكان محوراً للسياسة في إسبانيا الإسلامية في المغرب. وقد أثرت سياسة عبد الرحمن ثماراً سريعة، وما كاد جوهر يعود إلى القيروان حتى أعلن الزناتيون العصيان وقوضوا دعائم الحكم الفاطمي يؤيدهم الأمراء المحليون الذين حالفوا بني أمية. ووجد الفاطميون أنفسهم يجابهون خطراً أمورياً متزايداً ينحدر من الغرب، وخطراً بحرياً يهدد سواحل المغرب العربي نفسها وثورات داخلية في تونس يشعلها الفقهاء المالكيون، فلم يجدوا بداً من الاتجاه صوب الشرق لفتح مصر واتخاذها داراً للخلافة.

وفق عبد الرحمن في هذه المعركة الفاطمية توفيقه في المعركة الداخلية، وإن كان الفاطميون قد لعبوا في تاريخ هذه الفترة دوراً لا يذكر لهم بالخير، فقد كان ظهورهم في المغرب بلاء على العالم الإسلامي كله، فقد أشاعوا الانقسام في الحياة الإسلامية في وقت كانت فيه نذر المد الصليبي علو الأبواب، وفتحوا أمام الأمويين جبهة داخلية شغلتهم عن التفرغ كلية لمعركة الفرنجة، فلو كانوا أمنوا جبهة المغرب وألقوا وزنهم كله في الجبهة الشمالية لكان للنزاع بين الأمويين وبين الممالك المسيحية في البلاد شأن آخر. كان طبعاً بعد أن توحدت الجبهة الوطنية أن ينصرف عبد الرحمن إلى الجهاد من جديد وأن يتابع نفس الخطة التي تابعوها أبائهم من قبل، فهذا منطوق تمليه الأحداث في البلاد. ويلاحظ من يكتسبون في التاريخ القومي الإسباني عامة التماثل الغريب في التطور بين الإمارات النصرانية والإمارات الإسلامية و كليهما يسير جنباً إلى جنب في خط تطور واحد، فالوحدة والقوة في الجنوب تقابلها مظاهر أيضاً للوحدة مألوفة في الشمال وقدرة على الحركة والمناورة. وكان واضحاً أن أقدر القوتين على النصر أقدرها على الثبات والصمود

والاحتفاظ بالوحدة وقتاً أطول. ولعل هذا يفسر تقهقر الإسلام وتغلق المسيحية بعد سقوط الخلافة مباشرة. ومن الغريب أن مؤرخينا القدامى لا يقدرون هذه الإمارات حق قدرها؛ فهم يحاولون دائماً أن يصورها على أنها مجرد مراكز للثوار لا أهمية ولا قوة، ولا ندري كيف استطاعت هذه الشرازم والقوى المهلهلة أن تحرز النصر على المسلمين في معركة الحياة أو الموت. على كل حال شهد عصر عبد الرحمن تطوراً كبيراً في هذه الإمارات المسيحية الواقعة في الشمال سواء في الناحية الغربية أو الشرقية، في المغرب ظهرت مملكة ليون ووصلت إلى قمة الاتساع في عهد ملكها الفونسو الثالث فاحتلت مدينة سمورة ووصلت في آخر عهد هذا الملك إلى دوبرة. ووصلت مملكة ليون إلى قمة التطور في عهد أردونيو خليفة الفونسو. وشهد الشرق تطوراً مماثلاً حينما قامت الإمارات النصرانية مرتكزة على قواعدها في الجبال متصلة أشد الاتصال بسائر القوى المسيحية عبر البرانس بالبابوية والإمبراطورية، متشبثة بالفكر الغربي والحضارة الغربية، وكانت أقوى الإمارات في منطقة الشرق إمارات نافار وعاصمتها ببلونة⁽¹⁾. وشهد عبد الرحمن تطوراً بالغ الخطورة في تاريخ هاتين الإمارتين، فقد توحدت جهود أردونيو ملك ليون وسانشو ملك نافار لمقاومة القوى الإسلامية. وهو اتحاد أقرب شبهاً باتحاد فرديناند وإيزابيلا فيما بعد. غير أن الاتحاد الأول هذا صادف تجمعاً إسلامياً قوياً فوقف في سبيله، وصادف الاتحاد الثاني تجمعاً إسلامياً ممزق الأوصال متهاكماً استطاع أن ينال منه. على كل حال خرج عبد الرحمن لمواجهة هذا الاتحاد الجديد واستطاع أن يوقع به الهزائم العسكرية المتلاحقة، فخرج عبد الرحمن في حملة كبيرة 920 م. وأوقع بقوات الأوروبيين مجتمعين وتمكن من أن يستعيد بلاداً كثيرة، وحاول الملكان مرة أخرى أن ينتهزا فرصة انشغال عبد

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 141.

الرحمن بالاستيلاء على بعض حصون نهر دوبرة فهاجموا الحصون الإسلامية على نهر أيسرو ولكن عبد الرحمن عاد إلى لقائهما مرة أخرى وأوقع بهما الهزيمة، وكانت وقائعهما مع عبد الرحمن نصراً كاملاً للقوى الإسلامية ونتيجة حتمية للوحدة القومية التي تحققت في البلاد. ولم يستخدم عبد الرحمن السيف فحسب بل استخدم الأساليب الدبلوماسية لفض الخلاف بين الملكين. ويبدو أنه نجح في هذا واستطاع أن يحررها من حلفائها وأن يضرب كل إمارة على حدة ضربات قاتلة.

وكانت نتيجة هذا أنه في 950 م أصبح عبد الرحمن السيد الفعلي للمجتمع الأيبيري كله مسلميه ومسيحيه. فالبلاد الإسلامية الخارجة عن طاعته أخضعها، والممالك المسيحية حالف بعضها وكسب صداقتهم وأجبر الباقين على احترامه بل جعلهم لا يلجأون كعدو بل كصديق. ويكفي للدلالة على هذا أن ملك فاغار سانشو طلب من قرطبة طبيباً يعالجه من سمته المفرطة فأرسل إليه عبد الرحمن طبيباً له داية بالطب والسياسة معاً وهو حمداوي ابن شيروط اليهودي، وكان من نتيجة سفارته أن قدم وفد إلى قرطبة على رأسه سانشو نفسه حيث أكرم عبد الرحمن وفادته وندب الأطباء لعلاجيه. وكان من أثر ذلك عقد محالفة نال المسلمون من ورائها مغنم كثيرة. ومن ناحية أخرى كان ملوك ليون وأرغونة يفتدون إلى قرطبة ويحتكمون إلى الخليفة ليقر السلام بينهم. من هذا نستطيع أن نرى كيف تمكن عبد الرحمن بعد سنوات طويلة من الجهد والدأب أن يصبح السيد الأعلى للبلاد كلها. بل أصبح عبد الرحمن من أشهر الشخصيات في تاريخ غرب أوروبا في هذه الفترة. تخطى صيته شبه الجزيرة وترامى إلى بلاد غالة بل وصل إلى ألمانيا ووصل صيته إلى القسطنطينية وتوافد من كل أنحاء أوروبا على ذلك البلد العظيم: وكان هذا الرجل يعرف كيف يكسب الناس وكيف يفرض احترام

شخصه واحترام بلاده، وأصبحت قرطبة ليست عاصمة الإسلام في الغرب الإسلامي كله إنما عاصمة الحضارة في أوروبا كلها. بعد هذه الجهود وهذا النصر المتتابع شعر عبد الرحمن بقوته في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي، أحس بالانتصارات التي أحرزها في معاركه وكيف أذل الأعداء، وشهد مجتمع إسبانيا الإسلامية في عهده قمة التطور السياسي والاجتماعي والثقافي. ورأى قرطبة كعاصمة إسلامية تعلو على القاهرة أو بغداد، وحق لعبد الرحمن أن يقارن نفسه بأحوال العباسيين في بغداد الذين استبد بهم الترك واضطربت أمورهم وساءت أحوالهم، ورأى جهود الفاطميين المستميتة في إقامة خلافة علوية؛ لذلك قرر أن يضع الأندلس في وضعها الصحيح من الحياة الإسلامية وذلك بإعلان نفسه خليفة في يناير 929 رمضان 316 هـ. وقد ترك ذلك أثراً في النقوش الإسلامية في إسبانيا الإسلامية، ففي نقوش المسجد الجامع في إشبيلية الذي شيد عام 828 وجامع ماردة الذي شيد عام 835 لم يتخذ عبد الرحمن الأوسط غير لقب أمير ولكنه ابتداء من عام 929 حتى آخر العهد بالخلافة اتخذ الأمويون لقب أمير المؤمنين ولقب الناصر لدين الله والمستنصر بالله أو المؤيد. وفي الحق كان الغرب الإسلامي في حاجة إلى الزعامة وقوة التوجيه فملأت الخلافة الأموية هذا الفراغ الكبير، وكان إعلاناً لاستقلال إسبانيا الإسلامية سياسياً واجتماعياً وثقافياً. وقد أضفت الخلافة على الأمويين واجباً جديداً ورسالة جديدة في الزود عن الإسلام وحماية تراثه. ولا يمكن أن يختم القول في عبد الرحمن دون التحدث عن سياسته الإدارية في حكم البلاد فبها يرجع ما أحرزه من نجاح وتوفيق. كانت سياسة عبد الرحمن وليدة التجربة المريعة التي مرت بها البلاد في فترة الضعف من تاريخ الإمارة. فقد رأى أن الاستقلال الذاتي للولايات هو سبب التفرقة وهو الذي شجع على الفتن وأكسب الولاة حقولاً إقليمية لم تكن لهم من قبل؛

لذلك نراه يعمل على الحد من استقلال الولايات وتقوية سلطاته المركزية، كما عمل على تقليص أظافر البيوتات الكبيرة حتى لا تعود إلى سابق عهدها من التمرد والعصيان، لذلك جنب نفسه شر استخدام أهل الحسب. وكان رؤساء دولته من المحدثين في النعمة الذين لم يرفعهم نسب ولم تنهض بهم عن المجد سابقة فتوثقت صلتهم بسيدهم توثق الضعيف بالقوي إذ لولاه لداسهم الأسر العريضة بالأقدام. لهذا وسم حكم عبد الرحمن بالمركزية الشديدة التي هي أقرب إلى الاستبداد. قال عنه صاحب الأخبار المجموعة: «أنه أغاظ الأحرار وأوقعهم بين أيدي الأندال». وفلسفة عبد الرحمن في الحكم وجنوحه إلى الاستبداد تظهر من مناقشة ظريفة جرت بينه وبين أحد السفراء الأوروبيين. فقد تحدث السفير إلى عبد الرحمن بأن ملكهم يناقش الناس ويأخذ رأيهم وأن كل صاحب أقطاع يتصرف في إقطاعه ويتلقى ولاء من فيه من الناس، وله الحق في مناقشة الملك إذا لم يرض عن تصرف من تصرفاته. فأنكر عبد الرحمن ذلك إنكاراً شديداً وقال: إن هذه السياسة مفسدة للملك وعجب كيف يكون هناك من يسمح بجانب من سلطانه لنفر من الرعية. وفي الحقيقة كان عبد الرحمن معذوراً إلى حد بعيد فإن بلاد إسبانيا الإسلامية كانت بلد ثورات واضطرابات وكان الأندلس بطبعه بلداً عتيقاً فردياً نزاعاً إلى الاستقلال لا تسيطر عليه إلا يد قوية حازمة. وكانت لعبد الرحمن في الجيش سياسة وليدة التجربة المحزنة التي مرت بها البلاد منذ أيام عبد الرحمن الأول، فقد عمل الناصر على القضاء على العصبيات في الجيش قضاء تاماً؛ لأنها في نظره سر بلوى الأندلس ومصيبتها، لذلك ألغى الوجود القبلي للقوات وجعله وجوداً فردياً لا أثر فيه لقبيلة أو عشيرة، واستكثر من الصقالة بصورة كبيرة وجلب المجنديين من الفرنجة وفاليسيا ولومبارديا وكان تجار الإغريق والبندقية يجلبون هؤلاء الأرقاء ويبيعونهم للخليفة ليهذبهم ويربهم

على الإسلام، وهم أقرب شبهًا بالممالك الذين استخدمهم الأيوبيون في الجيش. وكانوا عدة هؤلاء الناس في إحرار النصر في الداخل والخارج. ثم أصبح الصقالبة في إسبانيا الإسلامية والممالك في مصر قوادًا وأمراء وارتبطوا بالإقطاعات العسكرية وورثوا الملك والسلطان في أوج الخلافة وحازوا الثروات وورثوا الخلافة بعد سقوطها ونشأت منهم إمارات شاركت في أحداث عصر الطوائف. والمؤرخ بروفنسال يقسمهم إلى فئات وطوائف أعلاهم مرتبة طائفة الفتيان وأوسطهم رتبة الغلمان وأدناهم الخصيان. ولقد لعب هذا الجيش دورًا كبيرًا في تحقيق أهداف عبد الرحمن الداخلية والخارجية. وقد انعكست توفيقات عبد الرحمن وانتصاراته على الحياة الاجتماعية لقرطبة في عهده فأصبحت حاضرة الإسلام في المغرب بل أصبحت حاضرة عالمية كبرى، وبلغت قصور عبد الرحمن من الأبهة حدًا بعيدًا، وكانت لها أسماء غاية في الرقة (الزاهر - المعشوق - المؤنس - التاج - دمشق). وصحب إعلان الخلافة تطورًا آخر له نظائر في تاريخ الشرق؛ وذلك حينما بنى عبد الرحمن حاضرة جديدة للخلافة وهي مدينة الزهراء على بعد خمسة كيلو مترات شمال شرق قرطبة في سفح الجبل المسمى بجبل العروس وكان ينفق عليها كل سنة ثلث دخل مملكته. وكان عدد العمال المسخرين فيها كل يوم نحوًا من عشرة آلاف عامل. كانت الزهراء في الحقيقة حاضرة الخلافة الجديدة. وكان قصر الخليفة بها آية في الروعة والبهاء. كان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الرخام والذهب. وفي وسط البهو حوض من الزئبق وإلى كل جانب منه ثمانية أبواب من الساج والأبنوس مرصعة بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق لمعت كالبرق، وقد بالغ المؤرخ ابن حيان في وصف هذه الحاضرة وما بها من منشآت وقصور.

استقبل الخليفة بقصر الزهراء ملكه نافار وملكها وملوك وسفراء الروم. والمؤرخون يصفون نظام البروتوكول العجيب في القصر عندما تحدثوا عن مشول سافشو بين يدي عبد الرحمن، ويستفاد من هذا الوصف أن الخلافة بلغت غاية التطور في البروتوكول والمراسيم، تحول عبد الرحمن من بساطة الأمراء إلى سمو الخلفاء وبدأ يحتجب عن الناس ويقابلهم وفق مراسيم معينة، وتطور القصر الخلافي تطوراً عظيماً حتى فاق قصور الخلافة ببغداد⁽¹⁾. أنفق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك أربع سنوات في القضاء على حركات الشوار في غربي الأندلس وجنوبها ولم يغفل لحظة عن مطاردة العصاة، فحاصر «طليطلة» التي كانت معقلاً للشوار مدة عامين حين قام بالخروج فيها أحد زعماء المولدين حتى يشت واستسلمت وخرج بنفسه في أواخر (317هـ/ 929 م) متوجهاً ناحية الغرب وأنذر العصاة وحاصر «بظليوس» وغيرها ومنع عنها كل مورد وضربها بشدة حتى اضطرت إلى التسليم، وفعل الشيء نفسه في «باجة» وفي «أكشونة» قرب ساحل المحيط التي أتى التأثير بها معتذراً فقبل «الناصر» عذره. وكما طارد الناصر العصاة في الغرب طاردهم أيضاً في شرق البلاد، فبعث وزيره «ابن بسيل» لمقاتلة بني ذي النون، فقصده معقله «شنت بريه» واقتحمه وقتل رجاله ولم يتركه إلا بعد أن خضع له، وفي (317 هـ/ 929 م) افتتحت مدينة «شاطبة» بعد أن ترددت عليها الحملات العسكرية لمدة خمس أعوام، وبذلك أجمدت كل الثورات في أنحاء «الأندلس» كافة بعد أن بقيت نحو نصف قرن تستنفذ موارد البلاد وتمنعها من الجهاد ضد عدوها المتربص بها في إسبانيا النصرانية. تعرضت الحدود الشمالية لقرطبة لأخطار جسيمة قبل أن يتولى «عبد الرحمن الناصر»، وفي الأيام الأولى للناصر تمكن

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 145.

«ألفونسو الثالث» ملك «اشتورياس» من الاستيلاء على حصون «قلمرية» - في البرتغال حالياً - كما سيطر على حصون ليون واشترقة وأماية وسمورة متتهداً انشغال الأمير في المشاكل والثورات الداخلية، وقام بتسكين أعداد كبيرة من نصارى الأندلس المستعربين الذين هاجروا إلى الشمال واستقروا في الممالك النصرانية، وعقب موت «ألفونسو» الكبير هذا استولى خليفته على حصن «أرماج» - الذي سيكون له شأن في الصراع بين الإسلام والنصرانية زمن الناصر - ومعنى ذلك أن مملكة «اشتورياس» توسعت وتضاعفت مساحتها وأصبحت تسمى مملكة ليون في الأيام الأولى لحكم الناصر، بل تجرأ بعض قواد النصارى ووصلوا إلى ضفاف نهر «الدويرو». وقد انتهر أمراء بنبلونة - عاصمة نبرة - وغيرها من الإمارات النصرانية الصغيرة الواقعة جنوبي جبال «ألبرت» الفرصة، وتمكنوا بمعاونة أصحاب الثغر الأعلى الأندلسي من تهديد المعازل الإسلامية في «تفيلة» وغيرها، ونجح ملك قشتالة الجديد في مد حدود دولته لتشمل أراضي قشتالة الجديدة، التي كانت أراضي إسلامية بها عدد قليل من المسلمين في ذلك الوقت، كذلك أمكن لإمارة «قطلونوية» التي تمكن ملوك الإفرنجية من إنشائها في عهد «عبد الرحمن الداخل»، أن تتوسع أيضاً على حساب أراضي المسلمين. وهكذا كان على عبد الرحمن الناصر عند توليه أن يواجه موقفاً بالغ الخطورة على حدوده الشمالية من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل المحيط الأطلسي.

تولى «راميرو الثاني» الحكم في «ليون» في السنة نفسها التي تولى فيها «الناصر»، وكان «راميرو الثاني» ملكاً طموحاً دائب الحركة، ولهذا بدأ في العام الثاني لحكمه يهاجم أراضي المسلمين، ووصل إلى «بابرة» - في البرتغال الحالية - على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين ألفاً وتصدى له عامل البلدة المسلم، ولكنه هزم وتمكن النصارى من دخول البلد وارتكبوا مذبحة ضد

أهلها وأسروا أربعة آلاف، فيهم عدد من النساء والأطفال، وقد خشي عمال البلاد من مهاجمة هذا الملك لبلادهم، فحصنوها وأحاطوا بالأسوار الحجرية المتينة، ومع ذلك استطاع ملك ليون مهاجمة مدينة «ماردة» ونهب أراضيها ودخل بعض حصونها وقتل فيها ألوف المسلمين، وأنشأ هناك كنيسة تسمى كنيسة القديسة «ماريا الليونية». وكان «عبد الرحمن» يؤثر في أول الأمر غض الطرف عن محاربة النصارى إلى أن يتمكن من تطهير إسبانيا الإسلامية من الثائرين، لكن هذا التخريب والفساد والعبث من جانبيه جعل الناصر يتخلى عن خطته، فبعث بجيش قوي (304 هـ / 916 م) التقى بجموع النصارى وهزمهم في عدة مواقع وعاد محملاً بالغنائم وفي العام التالي ضج المسلمون وطلبوا من الأمير إنقاذهم، فأرسل إليهم قوات يتزعمها «أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة» قائده الكبير، وقد استعد له ملك النصارى وجهاز أحسن ما لديه من عدة وسلاح. والتقى الفريقان بالقرب من بلدة «أرماج» وانهزم المسلمون وقتل قائدهم وتبع النصارى فلولهم لمسافات بعيدة، وكانت تلك نهاية «أبي العباس أحمد ابن محمد بن أبي عبدة» القائد المغوار صاحب الفضل في المحافظة على بقاء الإمارة الأموية طوال فترة حكم الأمير «عبد الله»، وقد قام ملك النصارى بتعليق رأس هذا القائد العظيم على سور البلدة المذكورة وبجواره خنزير بري نكابة به. هنا أدرك «عبد الرحمن» أن الأمر جد خطير وبخاصة بعد تحالف ملك ليون مع ملك نبرة، وسارت قواتهما معاً تريد الاستيلاء على مدينة «طليطلة» غربي «طليطلة» وفي الوقت نفسه توجهت قوات تابعة لملك «نبرة» لمهاجمة أراضي «بني قسي» أصحاب «طليطلة»، وأحرقت الزروع وعاثت فساداً، وأحرقت بعض المساجد، ولهذا أعد عبد الرحمن جيشاً ولى قيادته حاجبه «بدر بن أحمد» الذي احتشد له النصارى من كل ناحية، وتقدم المسلمون كالسيل إلى حدود ليون وهزموا النصارى هزيمة

ساحقة في موقعتين، ومع ذلك استمر النصارى يغيرون على الأراضي الإسلامية، وجرت حروب كانت سجالاً.

صمم عبد الرحمن على أن يخرج بنفسه لمقاتلة النصارى، فخرج من قرطبة في (13 من المحرم سنة 308 هـ/ أوائل يونية عام 920 م) في جيش ضخم، وانضم إليه كثير من أهل الثغور، وقد اخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً، واتجه إلى طريق ألبه والقلاع «قشتالة»، ووصل إلى «قلونية» ونسف وخرب دون أن يعترضه النصارى لأن ملكي ليون ونبرة كانا يتظران بجموعهما في الشمال. وقد عرج «عبد الرحمن» على «طليطلة» واستولى على حصون مهمة بها، ثم عبر نهر «إيرة» حيث وجد الملكين في كامل قواتهما، وقد أرادا استدراج الناصر إلى شعب الجبال، لكنه نجح في سحبهما إلى السهل المنبسط وعسكر غربي «بنبلونة» عند بلدة تسمى «خونكيرا»، وعندما انحدر النصارى من الجبل إلى السهل، أوسعهم المسلمون قتلاً وأسراً وفتكوا بالعديد من أساقفتهم وزعمائهم ومزقوهم، ثم هدم عبد الرحمن حصونهم، وأصلح حصون المسلمين بهذه النواحي، وجرت هذه الواقعة في (6 من ربيع الأول 308 هـ/ 26 من يولية عام 920 م، وقد استغرقت غزوة الناصر هذه ثلاثة أشهر، وكانت أول غزوة له ضد ملوك النصارى. لم ترتدع قوى النصرانية رغم ما تعرضوا له من هزائم وأخذوا يهاجمون الأراضي الإسلامية، واستولوا على بعضها، لذلك خرج «عبد الرحمن» إليهم مرة أخرى في (المحرم 312 هـ/ 17 من إبريل 924 م) وسلك اتجاه الشرق مخترقاً كورة تدمير فبلنسية، ثم دخل إلى طرطوشة فسرقسطة ثم تطيلة، ثم دخل أراضي «نبرة» حيث استولى على كثير من الحصون وهدمها، ثم قصد بعد ذلك بنبلونة - عاصمة مملكة نبرة - ودمرها وهزم ملكها، وأنهى مقاومته تماماً وفي طريق عودته إلى «قرطبة» عرج على «موسى بن ذي النون» وقبل طاعته وقد استغرقت هذه الغزوة أربعة أشهر وعرفت بغزوة «بنبلونة».

مات ملك ليون وحدثت مشاكل داخلية انتهت بتولية ملك جديد عمل على توسيع الفتنة بين المسلمين وكانت «طليطلة» آنشد تقوم بثورة معارضة، فقام الملك النصراني بتشجيع الثوار، وبدأ «عبد الرحمن» من ناحية يرسل العلماء لحث الثوار على الطاعة، فلم يستجب أحد مطمئنين إلى محالفة ملك النصراني لهم، لذلك اضطر الناصر إلى أن يخرج إلى الثائرين في قوات ضخمة في (ربيع الثاني 318 هـ/ مايو 930 م)، وبعد حصار شديد غادر عبد الرحمن المدينة وترك على حصارها بعض قواته، ثم عاد إليها بعد عامين فسار ملك ليون لإنقاذ «طليطلة» واستولى في طريقه على حصن مجريط (مدريد) لكن المسلمين استردوه، ففر ملك ليون واضطر أهل «طليطلة» إلى التسليم وانتهت بذلك ثورة من أخطر الثورات التي واجهها الناصر. وواصل «عبد الرحمن» ضرباته في بلاد الشمال، ولم يجد ملوك النصراني مفرًا من طلب الصلح، وأصبحوا من أتباع الناصر، وظلوا يخطبون وده ويطلبون العلاج في عاصمته. ولكن ملك ليون آله أن يخضع ملوك النصراني لأمير قرطبة، فحرضهم على حربه وجمع جيشًا كبيرًا يواجه به المسلمين فاستعد له عبد الرحمن استعدادًا كبيرًا؛ خاصة وقد تمكن الملك النصراني من الاستيلاء على حصن مجريط وهدد طليطلة (سنة 320 هـ/ 932 م) وقصد الجيش النصراني عن طريق وادي الحجاز، ثم سار إلى سرقسطة وبعث بقوات إلى «ططيلة» و«طرطوشة» وتحول إلى أراضي «نبرة» ليتلقى من ملكها رسالة تعبر عن رغبتها في السلم والمصالحة فوافق الأمير وأقر ابنها ملكًا على بلاد «البشكنس» ثم سار إلى أراضي «آلبه والقلاع» وخرب ونسف وعاث في أراضي ليون، فاجتمع له النصراني ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون ووصل إلى مقربة من ليون، ثم ارتدت قواتهم شرقًا وأخذت تبيت في أراضي قشتالة وخربت عاصمتها «برغش» ثم عادت القوات الإسلامية إلى قرطبة بعد أربعة أشهر.

وفي (323 هـ / 935 م) خرج أسطول الناصر في أربعين سفينة من ثغر
 المربة إلى جزيرة ميورقة، ومنها إلى شواطئ الشغور الفرنجية حيث حقق
 انتصارات كبيرة، وتوجه بعدها إلى برشلونة. فاجتمع الفرنجة لمقاتلته، ودارت
 بينه وبينهم مجتمعين معركة انتصر فيها الأسطول الإسلامي، ثم رجع إلى
 طرطوشة حيث صدرت الأوامر للقائد بالتوجه إلى سبتة وطنجة للتعامل مع
 الثائرين هناك، فظل يتردد بين مراسي العدو المغربية حتى شتاء العام التالي،
 ثم رجع إلى مرسية في (صفر 324 هـ / ديسمبر 935 م). كان «عبد الرحمن»
 قد عقد صلحاً مع ملك ليون بناءً على رغبته، لكن النصاري من البشكنس
 تحركوا واحتلوا بعض الحصون، وفي الوقت نفسه ظهرت بوادر فتنة خطيرة
 في سرقسطة، لأن أصحابها التجبيين لم يكونوا على وفاق مع حكومة
 قرطبة، وما كانت تعجبهم سياسة «عبد الرحمن» التي تعمل على إخضاع
 الزعماء المحليين بالإضافة إلى أن وجودهم بين الممالك النصرانية أعطاهم
 فرصة التآمر والخروج على سلطان الحكومة المركزية، وقد رفض زعيمهم
 بالفعل أن يشترك مع الناصر في حملته الأخيرة ضد النصاري، بل وتحالف مع
 ملك ليون ضد المسلمين، وانضم إليهما البشكنس، وبذلك وقف الشمال كله
 متحالفًا ضد عبد الرحمن. بعث الناصر بعض القوات التي تعاملت مع هؤلاء
 في بعض المواقع، وتكثفت حامية مجريط - أهم قلاع الشغل الأدنى - من رد
 هجوم ملك «ليون» عليها، ثم خرج عبد الرحمن بنفسه على رأس جيش
 ضخم في (رجب 325 هـ / مايو 937 م) فسار أولاً إلى «طليطلة» لتأمين أهلها
 وإرهاب النصاري، وسلمت له «وشقة» و «طلبيرة» غربي «طليطلة». بعد
 ذلك توجه الناصر إلى الشغل الأعلى عن طريق وادي الحجارة، وقصد قلعة
 أيوب التي يعتصم بها زعيم التجبيين، وعرض عبد الرحمن عليه الطاعة
 فرفض، واضطر إلى أن يدخل معه معركة عنيفة انهزم فيها الثائر وطلب

الأمان فوافق الناصر على تأمينه، وكان سقوط قلعة أيوب هذه أول صدع خطير في ثورة بني نجيب. ثم اتجه الناصر إلى ألبه والقلاع ففتح من حصونها سبعة وثلاثين حصناً، ثم ذهب إلى بنبلونة - عاصمة نيرة - لتأديب الناكثين. وأخيراً قبل اعتذار ملكتها وتوجه إلى تطيلة ومنها إلى سرقسطة وقام ببعض العمليات الناجحة برّاً وبحراً ضد ملك ليون وحلفائه، واستمر يحاصر سرقسطة حتى طلب زعيم بني نجيب الصلح فوافق الناصر⁽¹⁾. وبذلك سقطت سرقسطة وحصونها المهمة في يد الناصر، وانهارت أخطر ثورة واجهها الناصر، وهي ثورة التجبيين الذين كانت بلادهم مركزاً يجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة سواء أكانوا من الثوار أم من زعماء النصاري. ويلاحظ أن الناصر كان حريصاً على أن يعفو عن الثوار وأن يحسن إليهم ويضمهم إلى جيشه، وبهذه السياسة الرشيدة استطاع أن يستفيد من كل القوى المناوئة له عندما أحسن إليهم، وقد دخل الأمير الأندلسي سرقسطة وأرسل منها ثلاثة جيوش توغلت في أراضي ألبه والقلاع وهزمت النصاري في عدة مواقع ثم عادت جميعاً إلى قرطبة في (18 من ربيع الأول 326 هـ/ أواخر يناير 938 م) بعد ثمانية أشهر قضوها في العمليات الناجحة، وأراد الناصر أن يكرم زعيم «بني نجيب» فردّه إلى «سرقسطة» وأعادّه إلى مكانه وولاه كل مناصبه السابقة. مزق «عبد الرحمن الناصر» التحالف النصراني الخطر وأخضع الشمال الشرقي كله لسيطرته ولم يبق إلا ملك ليون بؤرة الفساد الحقيقي في هذه المناطق، وقد تم تجهيز جيش ضخم بلغت قواته نحو مائة ألف جندي، وولى الناصر قيادته «نجدة بن حسين الصقلي»، وكان الصقالب قد سيطروا في هذه الآونة على كل مناصب القصر والقيادة، وقد أثر ذلك على نفوس العزب وكان سبباً في تدهور قوى الجيش المعنوية. وفي صيف عام (327 هـ/ 939 م) سار الناصر

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 51.

وعبر نهر التاجه عند طليطلة ثم عبر نهر «دويرة» مستجهاً نحو قلعة «شت منكش» حيث كان ملك ليون قد عسكر مستعداً وحالفه «أمية بن إسحاق» وملكة نبيرة التي نقضت عهدها، وبذلك اتحدت قوى النصرانية من جديد ووقفت صفاً واحداً في مواجهة المسلمين. وجرت بين الطرفين موقعة تعد من كوارث التاريخ الأندلسي، عرفت بموقعة الخندق، وتفيض المصادر الإسبانية في وصف ما حدث، بينما تقدمها الرواية الإسلامية في صورة مقتضبة، وقد جرت وقائعها على باب قلعة «شت منكش» (سيمانقة) وكانت الحرب سجالاً، ثم انكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله وردهم العدو إلى خندق عميق نسبت الموقعة له، وقد تساقط فيه المسلون حتى امتلأ بهم عن آخره وانكشف الناصر واستولى العدو على محلاته وما فيها من عدة ومتاع وفقد مصحفه الشريف ودرعه. وكان للخونة وعلى رأسهم «فرتون بن محمد الطويل» أثره في الهزيمة، وقد أعدمه الناصر جزاءً وفاقاً لخيانته، كما كان لتولية قائد صقلبي أثره في امتناع العرب وتأثيره على روحهم المعنوية أثناء القتال، وقد قتل ذلك القائد في المعركة، وأسر من كبار المسلمين «محمد بن هاشم التجيبي» وبقي في أسر ملك ليون مدة عامين حتى اقتداه الناصر بمبلغ كبير. وهذه خاتمة معارك الناصر الحربية فلم يغز بعدها بنفسه واقتصر تقليد شئون الثغر الأعلى على أكابر رجاله ممن ورثوا الصلابة والبأس عن الأجداد، من أمثال آل تجيب وآل ذي النون وآل زروال وآل الطويل وآل رزين وغيرهم، وكان الناصر يزورهم كل عام ويزودهم بالعدد والسلاح، وقد استأمن «أمية ابن إسحاق» الذي تحالف مع النصاري فوافق الناصر على تأمينه عملاً بسياسته في اصطناع الخصوم الأقوياء.

أرسل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر فاستجاب له الأخير، لكنه كان صلحاً قصير الأمد كالعادة، كما عقد الناصر صلحاً مع ملك برشلونة

وغيره، لكن ملك ليون لم يحترم الصلح وهاجم الأراضي الإسلامية، فاضطر المسلمون إلى غزو مملكة ليون (329 هـ / 941 م)، وتوجيه بعض الحملات إليها وإلى جليقة. وفي (335 هـ / 946 م) جدد الناصر مدينة سالم، أقصى مدن إسبانيا الإسلامية الشمالية الغربية إلى حدود ليون، ونقل قاعدة الثغر الأعلى من طليطلة إليه، وولى عليها قائده «غالب الناصري» الذي كان له شأن في تاريخ إسبانيا الإسلامية زمن الناصر وابنه الحكم المستنصر بعده وقامت قوات عبد الرحمن بمعارك وغزوات ناجحة حتى وصلت إلى شاطئ المحيط الأطلسي، الشيء الذي جعل ملك ليون يطلب الصلح مع الناصر إيماناً بأنه لا قبل له به. عندما تولى عبد الرحمن الناصر، كانت الدولة الفاطمية قد قامت في بلاد المغرب منذ أربع في (296 هـ / 909 م)، وامتد نفوذها بسرعة حتى وصل إلى سبتة، وأصبحت تهدد الشواطئ في إسبانيا الإسلامية وتمثل خطراً دينياً وسياسياً عليها، ومن الطبيعي أن يزعم هذا الأمر الأمويين في الأندلس؛ لأن المغرب قاعدة من يريد الوصول إلى إسبانيا الإسلامية. كما أنه يمد الثوار بها بحاجاتهم ويشجعهم على التآمر ضد الإدارة الأموية. كان على الناصر أن يواجه هذه المشكلة قبل أن يستفحل خطرها. ولهذا بعث عام (319 هـ / 931 م) أسطولاً مكوناً من (120) سفينة وسبعة آلاف رجل إلى سبتة انضم إليهم بعض المتطوعة في الطريق، وقد تمكن هذا الأسطول من السيطرة على سبتة وانتزاعها من البربر حلفاء الفاطميين، ثم حاصر الأسطول بعد ذلك طنجة وضيق عليها حتى استسلمت وخضعت للناصر وغادرها بقية الإدارة، وبادر رعاء البربر إلى إعلان الطاعة للناصر وامتدت دعوته حتى فاس، وأطاعه «موسى بن أبي العافية» رعيم مكناسة، وأمله الناصر بالجنود والسفن حتى هزم الفاطميين ووقف سداً منيعاً أمام محاولاتهم في المغرب واستمرت جيوش عبد الرحمن تعبر من الأندلس

لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من البربر والأدارسة حتى استقر له الأمر ودعي له على منابر المغرب (322 هـ / 944 م). وقد قويت الأساطيل الفاطمية في عهد الخليفة «المعز لدين الله»، وبدأت تجوب شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ووصلت إلى أُمريّة وأحرقت سفنها وعاثت فيها (344 هـ / 955 م)، فرد الخليفة الناصر بإرسال قوة بحرية عاثت في تونس، وأمر بلعن الفاطميين والشيعة على منابر إسبانيا الإسلامية، وفي سنة (347 هـ / 958 م) أرسل الناصر أسطوله ثانية إلى المغرب العربي رداً على الحملة الفاطمية التي قادها «جوهر الصقلي» إلى عدوة المغرب، التي تمكنت من الوصول إلى فاس، وأرسل في الوقت نفسه حملة أندلسية عن طريق سبتة إلى المغرب بقيت هناك حتى رجع الفاطميون. وكانت سياسة الناصر مع الفاطميين تتجنب الدخول في صراع صريح معهم؛ لأن هذا يضعف جبهته الشمالية أمام النصارى، ولهذا وجدناه يكتفي بإرسال السلاح والعتاد والمعونات المالية الكبيرة إلى «موسى بن أبي العافية» و«مصالة بن حبوس» وأمثالهما لإلحاق الهزيمة بأعداء الفاطميين، ثم اكتفى باحتلال سبتة وطنجة ومنهما زود أعوانه في المغرب بحاجتهم ليثبتوا أمام الشيعة، وربما لجأ إلى معاونة الخارجيين على الفاطميين من غير الأدارسة وهو على كل حال لم يلق بخيرة جنده وقواده في الصراع المغربي، وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه ابنه الحكم المستنصر بعد ذلك فأثر على جبهته الشمالية وأضعفها ولم يتمكن من الخروج بنتيجة حاسمة⁽¹⁾.

إعلان الخلافة الأموية في قرطبة

عندما تولى «عبد الرحمن الداخل» أمر بعدم الدعاء لبني العباس ولم يتخذ لقب الخلافة مكتفياً بالإمارة، وسار بنوه على نهجه، فلما تولى

(1) د. عبد الله جمال الدين - نفس المرجع ص 54.

الناصر، وجد أن هناك دولة فاطمية قامت في بلاد المغرب العربي، ووصل نفوذها إلى شواطئ المغرب الأقصى، وقد اتخذ حكامها لأنفسهم لقب الخلافة وسماتها وإذا كان هو قد نهض بالدولة ووطد سلطان بني أمية في كل الأندلس فلماذا لا يكون من حقه لقب خليفة؟ لذلك أصدر أمراً بذلك في يوم الجمعة مستهل (ذي الحجة 316 هـ/ أوائل 929 م) وأصبح عبد الرحمن الثالث يلقب بالخليفة أمير المؤمنين الناصر لدين الله، وقد أرسلت نسخ من هذا الإعلان إلى إفريقيا والمغرب. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية مساوية للخلافة العباسية، ويناط بها رعاية شئون المسلمين، وتولية أمر الإسلام في الجناح الغربي من العالم الإسلامي. وقد استتبع ذلك تغييراً كبيراً في شكل الإمارة القرطبية ونظامها؛ حيث وضعت لها هياكل إدارية تعكس هيئة الدولة وتمنح البلاط القرطبي وجهة أكثر. وكثر القواد في جيش الخلافة وتنوع مراتبهم وكثر الوزراء أيضاً وتضاعفت هيبتهم. وكانت سياسة الناصر تقوم على النقل المستمر لوزرائه وولاته وقواده حتى لا يطول أمد الواحد منهم في وظيفته، وقد يدفعه ذلك إلى الاستبداد بالسلطة. لقد كان عبد الرحمن يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة، ولا يسمح لكبار رجال الدولة بإملاء رأي عليه، كما لا يمنح ولاية الأقاليم شيئاً من الاستقلال، ويرى أن الرعية ينبغي أن تكون رعية مطيعة بأمر الخليفة خاصة بعد الانتصارات التي حققها على المستويين الداخلي والخارجي، وكان يلقي وزرائه في مجلس فخم يعد كل شيء فيه بنظام مرتب. ورغم ميل الناصر إلى الاستبداد فإنه لم يعرف عنه أنه كان ظالماً، ولم تذكر المصادر أنه قتل وزيراً أو صادر ماله أو اعتدى على حق لأحد أو بالغ في عقوبة، وربما كان الوحيد بين خلفاء المسلمين بإسبانيا الإسلامية فيما يتعلق بتصرفاته في الخلافة وسلوكه بما يتفق مع مكارم الأخلاق ومبادئ الإسلام، وبهذه الأخلاق والوفاء استطاع الناصر بعد عشر

سنوات من حكمه أن يعيد النظام والهدوء والوحدة والأمان إلى دولته الواسعة، كما منح أمانات لبيوتات الثغر الأعلى من أمثال: بني هاشم وبني قسي وبني الطويل واستفاد بهم وبما تميزوا به من شجاعة في حروبه، ونجح في تحويل ملوك إسبانيا النصرانية إلى أتباع له أو حلفاء. كثر سكان قرطبة في عهد الناصر ووصلت مبانيها إلى تل الرصافة الذي يقوم عليه قصر الرصافة، ولم تعد قصور العاصمة تليق بالمكانة العظيمة التي ارتفعت إليها الخلافة، كذلك ضاقت أسواق البلد وطرقاتها، وأصبح من العسير على جيوش الدولة ومراكب السفراء المستمرة أن تسير في شوارع المدينة دون أن تضايق الناس. وكان الناصر قد بنى إلى جانب «القصر الزاهر» قصرًا جديدًا سماه «دار الروضة» استدعى له المهندسين والبنائين من كل ناحية، وأنشأ في ظاهر قرطبة متنزعات عظيمة جلب لها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة، ومع ذلك فقد كانت العاصمة تضيق بسكانها ولا تفي بحاجة ملك عظيم بلغه الناصر، ووطنه عن طريق سحق أعدائه في الداخل والخارج؛ لهذا كله فكر في إقامة مدينة جديدة تضم قصوره وأماكن حاشيته، وأخذ المهندسون في دراستهم ووصلوا إلى إقامتها على سفح جبل العروس على بعد ستة كيلو مترات من العاصمة وتطل عليها من الناحية الجنوبية الغربية. سميت تلك المدينة بالزهراء، نسبة إلى إحدى نساء عبد الرحمن التي ماتت عن مال كثير وأوصت أن ينفق في فك أسرى المسلمين، لكن الناصر لم يجد أسرى فقرّر إنشاء المدينة بهذا المال وأطلق عليها اسم صاحبة ذلك المال. بدأ العمل في المدينة الجديدة (أول المحرم 325 هـ/ نوفمبر 936 م)، وتولى الإشراف على بنائها «الحكم» ولي العهد، وحشد لها أشهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ولا سيما القسطنطينية وبغداد، وجلب لها الرخام بألوانه من «المرية» و «رية»، ومن قرطاجنة المغرب العربي وتونس والشام، وجلب لها

4324 سارية من الرخام واشتغل في بنائها يومياً عشرة آلاف رجل، و 1500 دابة، واستخدمت من الصخر المنحوت ستة آلاف صخرة في اليوم، وقدرت النفقة على بنائها بـ 300 ألف دينار سنوياً بخلاف ما أنفق في عهد الحكم، وأقام الناصر لنفسه قصراً أسماه قصر الخلافة، جدرانه من رخام مزخرف بالذهب، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب وأقام الخليفة في الجناح الشرقي المسمى بالمؤنس، وزوده بأنفس التحف ووضع في الحوض المنقوش بماء الذهب المهدي إليه من قصر القسطنطينية. وجدير بالذكر أنه تم التخطيط لمدينة «الزهاء» بحيث تكون مستقلة بذاتها، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من يدخل المدينة من درجة إلى درجة، وفي كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة، ويدخل الإنسان إليها من أسفل الجبل عن طريق باب كبير يسمى باب الأقباء - جمع قبة - لأن هذا المدخل كانت تحيط به وتقوم فوقه قباب، بعد ذلك يسير الإنسان مسافة طويلة في طريق مبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة (باب القصر) ويصعد درجات، وإلى جانب هذا المصعد ذي الدرجات يوجد مصعد آخر بل درج مخصص للخيول، وعندما يصل الإنسان إلى المستوى الثاني يجد مساكن الجنود وأصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة، كما وجدت هناك آثار المسجد الجامع لمدينة الزهاء، وكل هذه البيوتات محاطة بالأشجار والخضرة، وعندما ينتهي الإنسان من هذا المستوى يصعد مرة أخرى حتى يصل إلى سهل منبسط بنيت عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه بما في ذلك أماكن إقامة الحرس الخاص بالخليفة، وما يلزم لهؤلاء من حمامات ومساجد، بعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة فيواجه لأول صعوده البهو الكبير الذي أنشأه الناصر لاستقبال السفراء والملوك الأجانب، وهو بهو فخم يتكون من ثلاثة أقواس تفضي إلى قاعة فسحة بها ثلاثة أبهاء ينتهي الأوسط بمجلس الناصر في

صدره، وهناك يجلس الخليفة فوق عرشه تحيط به مقاعد الأسرة المالكة كل حسب مرتبته، وعلى الجانبين مقاعد للوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف موضوعة بصورة محكمة بحيث يختص كل مسئول بمقعده الذي لا يتغير، فإذا ما نظر الناصر ووجد مقعدًا خاليًا عرف من تغيب، أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفي القصر وكتاب الخليفة، وهذا المجلس يبدو للرائي من بعيد عندما يهل الإنسان على مدينة الزهراء، وقد أراده «عبد الرحمن» على هذه القصور؛ ليتمكن من رؤية السفراء والملوك وهم مقبلون من بعد، ثم وهم صاعدون إلى القصر، وقد سميت الرحبة التي أقيم فيها البهو الرئيسي باسم «السطح المرد»، وجعل أمام بهو الاستقبال حوض للسباحة، مصنوع من الرخام حفر له في الأرض، ورين بالتمثيل وقد تم جلبه من القسطنطينية وقد ضاعت معالم هذا القصر أثناء محنة الفتنة والصراع على الخلافة ويحاول علماء الآثار منذ (1328 هـ / 1910 م) العثور على شيء من معالم هذا القصر، وإعادة إقامة بعض منشآته وخاصة بهو الاستقبال. وبناء هذه المدينة والقصر يعكسان رخاء الأندلس ونهضة الفن المعماري بها آنذ، ووصل ازدهار قرطبة إلى أعلى درجاته فوصل عدد دورها إلى 113 ألف دار بلغ مجموع قاطنيها مليونًا ومائة وثلاثين ألفًا، وما يدل على كثرة سكان العاصمة أن عدد الحمامات بها بلغ ثلاثمائة حمام، وعدد مساجدها ثلاثة آلاف. وقد بلغت إيرادات الأندلس نحو 5.5 مليون دينار من الكور والقرى ومن الأسواق ونحوها 765 ألف دينار قسمت ثلاثًا: ثلثًا للجند، وثلثًا للبناء، وثلثًا يدخر للطوارئ. أمر الناصر بإضافة زيادة ثالثة إلى المسجد الجامع في قرطبة (346 هـ / 957 م)، وقد ضاعفت هذه الزيادة حجم المسجد في الاتجاه الجنوبي وقد تم بناء الزيادة على طراز بقية المسجد نفسه من حيث الأقواس ومواد البناء. وعُد محراب هذه الزيادة في المسجد آية من آيات الفن بإسبانيا الإسلامية ذلك

أنه ليس محراباً بل غرفة من الرخام سقفها قطعة واحدة منه في هيئة محارة، ووسط هذا المحراب كرسي يوضع عليه المصحف الشريف يستخدمه القارئ في تلاوة القرآن الكريم قبل الصلوات. وكان «عبد الرحمن الناصر» قد هدم منارة المسجد القديمة (340 هـ/ 951 م)، وجعل له منارة تميزت بفخامتها وارتفاعها الشاهق، وكانت مربعة الوجهاً، وله 14 شباكاً، وسلمان للصعود والهبوط وفي قمته ثلاث تفاحات كبيرات اثنتان من الذهب وواحدة من الفضة، وقد أزال النصارى هذه المنارة وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالي، ولا تزال اللوحة التي تشيد بجهود عبد الرحمن الناصر قائمة في مكانها عند الباب الرئيسي المسمى باب النخيل. كذلك أقام عبد الرحمن ما يعرف بالمظلة في صحن المسجد، وهي سقف متحرك يتكون من أعمدة من الخشب والحصار، يستظل بها الناس أثناء الصلاة في زمن الصيف، ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزداناً بأشجار النارج، وتلك ظاهرة تنفرد بها صحنون مساجد إسبانيا الإسلامية عن غيرها. ولا تقف جهود الناصر عند هذا الحد، وإنما يرجع إليه الفضل في إنشاء عدد كبير من المساجد في شمالي إسبانيا الإسلامية وجنوبه كما أن إليه يرجع فضل تجديد قنطرة الوادي وقنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة. وقد اهتم الناصر بالجيش وجمع له الجند من أنحاء المغرب وإسبانيا الإسلامية، واستكثر من الأسلحة، وأمدّه بمجموعة من أمهر القادة، وتولى القيادة بنفسه أحياناً. كما عني بالأسطول واهتم بإصلاح وحداته، وأنشأ به وحدات جديدة، وكانت «المرية» هي مركز الأسطول الرئيسي وبها دار الصناعة، وقد ضم أسطول الناصر (200) سفينة بخلاف أسطول المغرب، وكان لأسطول الناصر السيطرة على مياه إسبانيا الجنوبية الشرقية، كما كان يتنازع الفاطميين السيادة على غربي البحر الأبيض المتوسط وعلى الرغم من الحروب فلما عصر الناصر كان عصر رخاء راد فيه

الدخل وازدهرت الزراعة والتجارة وكثرت أخماس الغنائم، ويقال إن الناصر لما مات وجد في بيت ماله خمسة آلاف مليون درهم، وترك في قصره عشرين مليوناً من الذهب. وفي (316 هـ/ 928 م) أمر الناصر باتخاذ دار للسكة في قرطبة لضرب الدنانير والدراهم، وبذل جهده في الاحتراس من الغش والتدليس فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً، وكان ضرب النقود معطلاً قبله. وبلغ الأمن ذروته في سائر البلاد أيام الناصر، وترك ذلك آثاراً طيبة على مصادر الدخل وازدهرت العلوم والآداب ورخصت المعاش. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الدولة الأموية في إسبانيا الإسلامية كانت تعتمد على اصطناع الموالي والصقالبة منذ عهد الداخل، وذلك بسبب الظروف التي قامت فيها دولته، والثورات التي أثارها من نafسه من زعماء القبائل العربية، الشيء الذي جعله يرتاب في العرب ويصطنع البربر والموالي، وفي عهد «الحكم الربضي» اشتد نفوذ الموالي والصقالبة في القصر والدولة وملا الممالك كل الأرجاء، ولما جاء الناصر استراب أيضاً في القبائل العربية فاستأثر بكل السلطات وجمع مقاليد الحكم في يده، ولم يتردد في سحق كل من يقف في طريقه حتى ولو كان أقرب الناس إليه، وكان يثق بالصقالبة خاصة ويوليهم ما يولي سواهم من المناصب الكبرى حتى اشتد نفوذهم، وكانت لهم السيطرة على كل شئون الحكم والإدارة والجيش وكثر المال في أيديهم، وقد وصل عددهم إلى نحو أربعة عشر ألفاً. وقد بلغت السفارات والمراسلات والمعاهدات بين قرطبة وبين الدولة النصرانية أوجها في عهد الناصر، وكان بلاط القسطنطينية من الساعين إلى توثيق الروابط مع حكومة الأندلس، ووفدت رسله تحمل هدايا للخليفة، وأهم سفارة تلقاها الناصر هي سفارة إمبراطور ألمانيا زعيم النصرانية (344هـ/ 955 م). وكان الناصر أديباً عالماً يهوى الشعر وينظمه ويقرب إليه الأدباء ومن شعرائه عبد ربه صاحب العقد

الفريد، وشاعر الأمويين منذ عهد محمد بن عبد الرحمن الثاني، وله أرجوزة تفيض في وصف الناصر وتستعرض غزواته حتى (322 هـ / 934 م) مرتبة على السنين. وما من شك أن طول عمر عبد الرحمن الناصر، وطول فترة حكمه قد ساعده على تحقيق ما وصل إليه وحققه من عظام، واستحق أن يختم «دور» حديثه عنه بهذه الجملة: «الذي اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين، لأجدر بأن يعتبر قريباً للملك العصر الحديث، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى».

يقول عنه ليفي بروفنسال - الباحث والمؤرخ الفرنسي المشهور - «إن عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في العصور الوسطى». ويشير إليه تويني - أشهر فلاسفة التاريخ في العصر الحديث - باعتباره مثال الحاكم المستنير الذي يتخطى عصره بملكاته وبمواهبه وأخلاقه، وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليته جميعاً. وقد توفي الناصر في (الثاني من رمضان 350 هـ / 15 أكتوبر 961 م) ودفن في قرطبة، وتولى بعده ابنه «الحكم المستنصر»⁽¹⁾. كان في سياسته الداخلية مسالماً إلى أبعد الحدود. والسبب أنه كان مطمئناً إلى الولاء الذين اختارهم أبوه وقد أخلصوا له كل الإخلاص، وأنه كان قد خرج نفر منهم في مناسبات متفرقة فلم يتسامح مع الخارجين إنما قضى عليهم في حزم وقوة، وكان في الحقيقة رجلاً رقيقاً يعتق العبيد وير بالفقراء ويتفق على أهل العلم. كانت الأحوال الداخلية استمراراً لعهد السلام الناصري الذي أظلم البلاد منذ منتصف حكم عبد الرحمن الناصر. لذلك لم يكن عهد الحكم في الناحية الداخلية حافلاً بالأحداث الجسام، ولم تسجل الحوليات فتناً داخلية تذكر. بل يتبين مما ذكره

(1) د. عبد الله جمال الدين - نفس المرجع ص 59.

ابن حيان مؤرخ الخلافة الأموية أن الحكم لم يغير شيئاً من مألوف الحياة، ظلت نفس المراسم الخلافية تجري في قرطبة أو الزهراء كما كانت تجري أيام عبد الرحمن. وشهد العصر نفس كبار الموظفين الذين تضاعف سلطانهم يوماً بعد يوم، وبرز الصقالة في الحياة السياسية أيام الحكم برور عبد الرحمن، ومنظروا في أيامه من هذه الصائفة القائد غالب الذي كان يقيم في مدينة سالم ووكل إليه أمر حراسة الحدود وتنفيذ اتفاقيات الهدنة التي عقدت زمن الناصر. وكان غالب في الحقيقة ساعد الحكم الأمين، سواء في علاقاته مع الإمارات المسيحية في الشمال أو في تنفيذ أهداف الخلافة الأموية في المغرب. استمرت الحجابة في عهد المستنصر تؤدي نفس الدور الذي أدته أيام الناصر وإن كان قد برز أيام المستنصر أبو الحسن جعفر بن عثمان المصفي الذي نال الحظوة عند الحكم فقد كان أبوه مؤدب الحكم في صباه فأحب أن يكافئ الابن فولاه الكتابة ثم ولاه على جزر ميورقة، ثم تولى شرط قرطبة وأصبح وزيراً وكبيراً للحجاب، وقد انفرد بتصريف الأمور في السنوات التي قضاها الحكم طريح الفراش في قرطبة وكان أميناً في تصريف الأمور يستشير سنده في كل صغيرة أو كبيرة. وكان الحكم يظهر كفاية وقدرة عندما تتضح عداوة الأعداء المحيطين بالخلافة، فكان يخلع رداء الخلفاء ويرتدي رداء السياسة أو العسكرية فتظهر له قدرة تذكر بقدرات عبد الرحمن⁽¹⁾.

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 147.

الإدارة في غرناطة بني الأحمر

النظم السياسية والإدارية لهذه المملكة على عهد بني نصر تضم أهم رجالات الدولة لا يمكن فصلها عن مناصبها التي احتلتها في عهد سلاطين بني الأحمر.

الحجاب،

يوكل منصب الحجاب إلى موظف كبير يعرف في أيامنا هذه بكبير الأمناء، في دول الخليج، ولا يزال للمنصب وجود بالمغرب، وكان مهمة الحجاب لدى بني نصر تلخص في إدخال الناس على الخليفة؛ فالخلفاء الراشدون لم يمنعوا أحداً من الدخول إليهم، بل كانوا يخاطبون الناس من دون حجاب، ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، اتخذ معاوية ومن خلفه من بعده حجاباً يحجبون السلطان عن العامة والخاصة، خصوصاً بعد حادثة الخوارج مع علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص خوفاً على أنفسهم من شر طارئ إذ كانوا يبيحون الدخول لثلاثة في أي وقت شاءوا، فقد قال عبد الملك بن مروان عندما ولي حاجبه: لقد وليتك حجابة بابي إلا على ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البوיד فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد. فوظيفة الحجاب في المشرق الإسلامي كانت تنظم عملية دخول الزوار على الخليفة حسب مراتبهم ليوفر له الجو الملائم للانصراف إلى مهامه المهمة، أما في الغرب - خاصة في إسبانيا الإسلامية - فإن دور الحجاب اتسع واتخذ أبعاداً جديدة؛ فأصبحت له صلاحيات وسلطات داخل الكيان السياسي. وخير من تحدثت لنا عنه المصادر في تولية منصب الحجابة على عهد الدولة النصرية هو أبو النعيم رضوان الذي وصفه ابن الخطيب بقوله: حسن الخلق، واسع الصدر، أصيل الرأي، رزين

العقل، كثير التجميل، عظيم الصبر، عزيز النفس، عالي الهمة، بادي الحشمة، آية في العفة مثلاً في النزاهة، ملتزماً للسنة، ثاقب الذهن، عارفاً للسياسة، مكرماً للعلماء، مقتصدًا في المطعم والملبس. كان محط ثقة العرش النصري، اختاره السلطان أبو الوليد إسماعيل كمرب لولده محمد الرابع. وما كاد هذا الأخير يستولي على السلطة حتى اتخذ حاجباً له. ولما تولى بعده شقيقه أبو الحجاج أجمع أهل البلاط على إسناد وظيفة الحجابة إلى أبي النعيم، وأن يضم إلى جانبها رتبة الوزير، فقام بالأمر أحسن قيام واجتهد في تنفيذ الأحكام، وتولى جواب الولاة، وتطبيق أوامر السلطان وقيادة الجيوش. وعندما تولى الأمر السلطان الغني بالله، أخذ له أبو نعيم البيعة، وأعانه على أمره. وتولى له الوزارة، ونشر العدل بين ربوع المملكة؛ فارتاح الشعب لسياسته، وظل خير معين له، وأعظم مستشار، إلى أن لحق بربه في 28 رمضان 760 هـ/ 23 أغسطس 1358 م.

الوزراء:

إن كلمة «وزير» مشتقة من الورر وهو الشغل؛ أي المعاونة؛ لأن الوزير يحمل عن الملك أعباء الدولة، أو من الورر وهو الملجأ، بمعنى أنه يرجع إلى رأيه وتدييره. أو من الأزر أي الظهر؛ لأن الملك يقوى بمساعدة وزيره كما يقوى البدن بالظهير. والوزارة لم تظهر مع مجيء الإسلام، بل تعود إلى عهود أقدم من ذلك، فقد عرفها الفرس وغيرهم من الأمم. ويراد بالوزارة مساعدة السلطان أو الأمير في أمور الحكم. إذا فهي تتصل بصدر الإسلام، إذ كان الرسول - ﷺ - يشاور معاونيه - خاصة أبو بكر - في بعض الأمور، سواء الخاصة أو العامة، إلا أن هؤلاء الأعوان لم يطلق عليهم اسم وزير؛ لأن هذا الاسم لم يكن معروفاً في ذلك العصر، لبساطة الإسلام، وبعده عن

مظاهر الأبهة والعظمة، فالوزير حسب طبيعة منصبه له مهام سياسية وإدارية، فهو حلقة اتصال بين السلطان والرعية، يساعده في تسيير أمور دولته ويطلعه على كل أحوال الرعية. ولأهمية المنصب كان من الطبيعي أن تكون في الوزير، الذي يمثل السلطة التنفيذية مجموعة من الخصال، منها: أن يكون من عليّة القوم، وأن يتحلّى بالرصانة والتواضع والمعرفة، إلى جانب الحزم والجلد، وحفظ السر، والوفاء للعاهل. كانت قاعدة الوزارة في عهد بني أمية مشتركة بين جماعة من الأفراد، والذين يختارهم السلطان بنفسه بهدف استشارتهم، فيجالسهم مراراً، ويختار من بينهم شخصاً يكون النائب عنهم يعرف بالوزير، أما على عهد بني العباس فقد كان منصب الوزير يقصد به أيضاً وزارة القلم، ووزارة السيف، حتى إن جعفر بن يحيى دعي بالسلطان أيام الرشيد لقيامه بعموم أمور الدولة إلا الحجابة، وأما في عهد بني نصر، فقد اتسعت مهام الوزير وتخصصاته فأصبح يتولى بنفسه رئاسة السلطة التنفيذية للدولة، وكان منصبه يأتي مباشرة بعد رئاسة الدولة. أما مهامه فتتلخص في كونه يتلقى أوامر السلطان ويقوم بتنفيذها اعتماداً على مجموعة من الموظفين الذين يوزع عليهم مختلف الأعمال، كما يشرف على الكتابة وديوان الإنشاء. وتهدر الإشارة كذلك إلى أن الوزير في الدولة النصرية - ونظراً لمكانته السياسية والإدارية - كثيراً ما كان يتولى المخاطبات الملكية وتحرير الرسائل، ومخاطبة الولاة والعمال، وتنسيق المراسم والقوانين، وأحياناً كان يقود الجيوش بنفسه، ويقوم بمهام أخرى متعددة كال حاجب أبي النعيم رضوان الذي ورر للسلطان أبي الحجاج يوسف، وكان على عهده يعين الولاة والعمال، ويرد على المخاطبات الرسمية، وينظر في مشاكل الرعايا، ويقود الجيوش، وأحياناً أخرى كان الوزير يتولى مهام السلطان أثناء غيابه، كما حدث لابن الخطيب حينما ناب عن أبي الحجاج أثناء حروبه، إذ ألقى إليه

السلطان بسيفه وخاتمه، واثمنه على شؤون حرمه؛ فلقب بـ «ذي الوزارتين» لجمعه بين الكتابة والوزارة. ومن مزايا هذا اللقب الإداري أن صاحبه يتولى منصباً موازياً لرتبة الحاجب، أما مزاياه المادية فإن صاحبه يتقاضى راتبين.

لهذا المركز المرموق والراتب الكبيرة اتخذ بعض الوزراء سكناً لهم بجوار قصر الحمراء قاعدة الملك ومقر السلطان، بل كانت تجمعهم مع ملوكهم علاقات متينة، إذ كانوا يبقون في القصر معظم يومهم مرافقين للملك. وقد حدثنا ابن الخطيب أنه كان يشارك الملك في مائدة طعامه، ويحضر معه أثناء الاجتماعات. ظل السلطان النصري الغالب بالله يحكم مملكة غرناطة من عام 635 هـ إلى 671 هـ، وقد وزر له أثناءها عدد من كبار رجالاته وقادته الذين ساعدوه على تسيير شؤون مملكته، كالقائد أبي مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد زعيم مدينة جيان، وعلى بن إبراهيم الشيباني من أعيان مملكة أهل غرناطة، كما وزر له ابنه أبو عبد الله محمد، ما مكنه من كسب خبرة طويلة، وأيضاً القائد الرئيس أبو عبد الله محمد الرميمي، وبعد وفاة الغالب تولى ابنه محمد الفقيه ووزر له عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، وتعد بيوتاته من بيوتات الأشراف في شرق الأندلس، وأيضاً الحاج المحدث أبو عبد الله محمد الحكيم الرندي اللخمي الذي استمر في منصبه السياسي حتى عهد أبي عبد الله بن الفقيه الملقب بالملخوع. ويذكر أن هذا الوزير استبد بالأمور في عهد هذا السلطان وأساء التصرف من دونه؛ فثار أهل غرناطة بمحمد الملخوع ووزيره ابن الحكيم اللخمي؛ فخلع هذا السلطان وخلفه أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه في عيد الفطر سنة 708 هـ/ مارس 1309 م، أما السلطان أبو الحجاج يوسف الأول فمثل غيره من سلاطين بني نصر كان بلاطه يزخر برجالات سياسية وأدبية ودينية وعسكرية، كما ارتقت العلوم والمعارف في عهده إلى مستوى عال، وازدهرت الآداب والفنون وقفز الشعراء

والكتاب إلى المناصب الوزارية. وغالبًا ما كان الوزير يستعين بهؤلاء. كان الكتاب في إسبانيا الإسلامية على نوعين: فهناك كاتب الرسائل الذي كان يحظى بمكانة كبيرة بين أهل البلاد، وكاتب الزمام ويسمى أيضًا بصاحب الأشغال الخراجية، وكان كوزير المالية. وقد كانت مهمته الإشراف على الإدارة المالية الخاصة بسجاية الضرائب وجمع الخراج وتحصيله، وكان الكتاب أحيانًا يرتقون إلى منصب الوزارة كأبي عبد الله محمد بن الحكيم الرندي اللخمي الذي كان كاتبًا للسلطان محمد الفقيه، ثم صار وزيرًا لابنه من بعده محمد الثالث الملقب بالملخوع، ومن الكتاب من انتقل إلى وظيفة القضاء، كالقاضي أبي بكر بن أحمد بن شيرين، أصله من إشبيلية عاد في أواخر عام 705 هـ إلى غرناطة، فارتسم بها في الكتابة السلطانية، ثم تولى القضاء بكثير من الجهات واشتهر بحمال روايته وبراعة خطه، وحسن مجالسه، وكان أشد الناس اقتدارًا على نظم الشعر والكتب الرائقة. وخلاصة القول: كانت للوزير مهام متعددة؛ فهو المنفذ لأوامر السلطان والممثل بين يديه في الاجتماعات، ويقوم بتوزيع المهام على عدد من الموظفين، كل حسب اختصاصاته، كما كان مكلفًا بديوان الرسائل، بل يقوم بنفسه بتحرير الرسائل الرسمية والظواهر السلطانية في تعيين الولاة والقضاة وكبار الموظفين، وينوب عن السلطان في أثناء غيابه أو مرضه، وأحيانًا يقوم بقيادة الجيش. وكان الوزير أيضًا مثل السفير كالوزير لسان الدين بن الخطيب الذي بعثه السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بسفارة إلى السلطان أبي عنان المريني عام 755 هـ/ 1354 م ليقوم بتعزيزه في وفاة والده أبي الحسن المريني، ويطلب استمرار العلاقات الودية بين الدولتين النصرانية ومملكة فاس. ولتعدد هذه المهام حظي الوزراء بمكانة مرموقة داخل المجتمع، واعتبروا من الطبقة الأرستقراطية الغنية، والتي لا يمكن بتأثا فضلها عن الأسرة الحاكمة⁽¹⁾.

(1) د. أحمد ثابت - المرجع السابق ص 199.

الشرطة:

كانت مهمة الشرطة تتلخص في حفظ النظام، واستقرار الأمن، ومراقبة المجرمين ومطاردتهم، وتتبع أهل الفساد، وتنفيذ العقوبات، وتوقيعها على المذنبين في المخالفات المدنية التي لا تدخل ضمن اختصاص القاضي الشرعي، فخطه الشرطة في إسبانيا الإسلامية كانت مضبوطة ومعروفة لدى الجميع يعرف صاحبها إما بـ «صاحب المدينة» أو «صاحب الليل»، وكان يكلف بإقامة حد الزنا، وشرب الخمر، وكثير من الأمور الشرعية. وإذا ألقينا نظرة فاحصة على الأدوار التي كان يقوم بها صاحب المدينة سيتضح لنا جلياً أن من الصعب عليه القيام وحده بهذه المهام مهما كانت قدراته ونشاطه، لاستمرارها ليلاً ونهاراً، وتعددتها واختلافها، فله مهام اجتماعية وأمنية وقضائية، وكان يساعد صاحب المدينة في القيام بواجبه الأمني، وتنفيذ مهامه، جماعة من الحراس الذين كان منهم من يترقب الجناة، ومنهم من يطوف ليلاً للحفاظ على الأمن داخل غرناطة، ويعرفون باسم «الدرايين»؛ لكون بلاد إسبانيا الإسلامية كان بها دروب «بأغلاق»، ولكل زقاق حارس يبيت فيه، له سراج معلق وكلب وسلاح معه لتأمين أهل غرناطة من بعض اللصوص الذين يتقنون فك الأغلاق الصعبة، وأحياناً كانوا يقومون بقتل صاحب الدار خوفاً من كشف أمرهم، فلا يكاد تسمع في الأندلس إلا دار فلان دخلت البارحة أو: فلان ذبحه اللصوص على فراشه. وكان يشرف على مراقبة وحماية الأسوار المحيطة بغرناطة - والتي كانت مدعمة بأبواب وأبراج - حامية عسكرية تسهر على مراقبة الداخلين والخارجين عبر أبواب غرناطة؛ للدفاع عن المدينة في حالة أي هجوم. وبجانب كل هذه الاحتياطات الأمنية وجد بغرناطة نظام التجسس بين الناس ومراقبة بعضهم بعضاً، ويفهم من العديد من النصوص أنه كان هناك نوع من المراقبة السرية التي تمارس على بعض الأفراد، والتي

تبدو لنا بوضوح في رسالة السلطان أبي الحجاج يوسف الأول التي بعثها إلى أبي عنان فارس بمناسبة فرار أخيه من غرناطة إلى بلاد النصارى، فقد كاتبه قائلاً عرفنا مقامكم الأعلى بما عندنا من صرف نظرة الملاحظة إلا من لدينا من إخوانكم وبني عمكم، بحيث لا يبرح رقيبها ولا تحفل تريثها، وإننا نصل التفقد لأحوالهم ونذكي العيون على أقوالهم وأعمالهم. وكان بغرناطة أيضاً الشرطة العليا والشرطة السفلى، وقد رأى ابن خلدون أن الأولى تنظر في جرائم الطبقات العليا من الدولة، بينما الثانية تختص بقضايا العامة. ويلاحظ في بعض الأحيان تولي بعض الأشخاص وظيفة الشرطة والحسبة في نفس الوقت، مثل أبي بكر محمد بن فتح بن علي الأشبرون الذي جمع بين المنصبين في عهد السلطان محمد الفقيه النصري، ويتحدث عنه النباهي قائلاً: كانت توليته السوق والشرطة معاً عليه من المضاء والصرامة والقوة والاكتفاء. وإذا كان صاحب المدينة عظيم القدر عند السلطان كان له قتل من يجب عليه دون استئذان السلطان، ولا يكون ذلك إلا نادراً، ولا يتم إلا في حضرة السلطان وصاحب السوق كان يعرف أيضاً بصاحب الحسبة⁽¹⁾.

الحسبة:

تعتبر الحسبة من الوظائف المهمة في النظم الإدارية للدولة الإسلامية، إذ كان المحتسب ينصب من طرف الحاكم للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أموالهم ومصالحهم. وكانت خطة الاحتساب يوكل أمرها إلى أهل العلم والفطن، وغالباً ما كانت تسند مهمة الحسبة والقضاء إلى رجل واحد رغم ما في العاملين من التباين؛ فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، بينما عمل المحتسب يتطلب السرعة في الفصل والحسبة وظيفة وجدت مع

(1) د. أحمد ثابت - نفس المرجع ص 206.

الإسلام عندما رأى أن الإنسان لا يستطيع أن يستغني عن مبدأ التعاون مع غيره، فحتى تضبط أمور المسلمين، كان لابد من وجود سلطة تلزم كل إنسان حده حتى لا تأمره نفسه بالشر ويعيث بمصالح الناس، أو إرضاء شهوة جامحة أو نزوة طارئة؛ لذلك وجدت خطة الحسبة التي اهتمت بقضايا اجتماعية وأخرى اقتصادية ويتم بها حماية المصالح العامة للرعية، لكن مهمة الحسبة لم تقف عند هذا الحد، بل اتسعت دائرة مهامها، وأصبحت تشمل جميع ما يتصل بحياة الناس الدنيوية، وحياتهم الدينية، بل أصبح قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولما كانت الحسبة تدخل في إطار عام هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد جعلت اختصاص المحتسب ومجالات نظره متعددة وواسعة، ونجملها حسب أحكام الماوردي في ثلاث نقاط مركزية:

- الأمر بالمعروف فيما يتعلق بحقوق الآدميين، بالإشراف على أمرهم بفعل الخير، وإصلاح المرافق، وحثهم على مساعدة الفقراء، وبناء المساجد والمدارس. - الأمر بالمعروف فيما يتعلق بالحقوق المشتركة بين الله سبحانه وتعالى وعباده، مثل: إلزام النساء بأحكام العدة في حالة الوفاة أو الطلاق، والرفق بالحيوانات وعدم إرهابها وتحميلها ما لا تطيق.

- فوظيفة المحتسب تتلخص في متابعة المنكرات والمخالفات والتحذير من ارتكابها والتشديد على احترام وتطبيق الأحكام الشرعية فيها، والقضاء على الغش والاختلاس في المعاملات والمكايل والموازين. ويفهم من النصوص أن من عادة المحتسب أن يذهب بنفسه راكباً إلى الأسواق مع جملة من أخواه مصحوباً بميزانه الذي يزن به المواد المرغوب في مراقبتها كالخبز، وهو عندهم معلوم الأوزان، ويدس صبيّاً أو جارية ليشتري مادة ما، ثم يختبر المحتسب الوزن، فإذا وجد نقصاً فيه، لقي بائعها ما يستحقه من ضرب، وإن لم يتب

بعد الضرب ينفى من البلد. فالحسبة تناولت كل ما يتعلق بالمجتمع وأخلاقه وتقاليده؛ فقد حثت على الحفاظ على نظافة الطرق والرفق بالحيوان، ألا يحمل ما لا يطيق حمله، ودعت إلى العناية بالصحة، ومنع معلمي الصبية من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر، والمجاهرة بإظهار الملاهي المحرمة مثل الزمر والعود وسائر المفسدات والمحرمتات وتبرج النساء، ومنع سيرهن وراء الجنائز، وزيارة القبور، وغيرها من الأمور المرتبطة بالمجتمع في حياته اليومية. وكان المحتسب يقيم الحدود كذلك ويضبط الأخلاق. ويروي لنا ابن الخطيب أن صاحب السوق أبا بكر بن الأشبرون لقي سكران من الجند فقبض عليه، واشتد في حده وبالع في نكاله. ولما بلغته الحسبة في غرناطة من أهمية انتقل بعض المحتسبين إلى منصب القضاء مثل أبي بكر محمد الأشبرون. وكان يشترط في المحتسب مجموعة من الشروط، فلا بد أن يكون: رجلاً عفيفاً، خيراً، ورعاً، عالمًا غنياً، نبلاً، عارفاً بالأمور، محسناً فطناً لا يميل ولا يرثي فتسقط هيئته ويستخف به، ولا يستعمل في ذلك خساس الناس، ولا من يريد أن يأكل أموال الناس بالباطل والمهونة؛ لأنه لا يهاب إلا من كان له مال وحسب. وتروي النصوص أن نظام الحسبة في المغرب والأندلس استمر الأخذ به طيلة القرون الوسطى. وخير دليل على أهمية الحسبة استمرار الإسبان في إقرار مهمة المحتسب ووظيفته، وكلما استردوا إقليمًا من المسلمين أطلقوا عليه اسم Almocadem، وهو الذي توكل إليه مهمة الإشراف على الموازين والمكاييل. يبدو لنا مما ذكر أن المحتسب كان من أصحاب المناصب الرفيعة في الدولة الإسلامية، ومن أعظمهم نفوذًا ممن كان لهم اتصال مباشر بالرعية، فقد اتسعت سلطاته ومهامه فلا يذكر جانب من جوانب الحياة إلا يكون له إشراف عليه؛ لذلك اشترط في المحتسب معرفته التامة بأمور الشريعة والدين، ومواظبته على سنن رسول الله ﷺ.

الكتابة:

تعتبر وظيفة الكاتب من الوظائف السامية في مملكة غرناطة النصرية، فقد كان الكاتب يعد من أكبر أعوان الخليفة، يتم اختياره من بين كبار الأدباء وأهل العلم؛ كي يمارس الكتابة في ديوان الإنشاء. وكان يشترط في أصحاب هذا الديوان العلم بكل أنواع الكتابة وحسن الخط، وترتيب اللفظ واتساع العلم، وذكاء الفريضة وجودة الرؤية. وأشرنا سابقًا إلى استعانة الوزراء بمجموعة من الكتاب، ككتاب الرسائل وكاتب الزمام المكلف بالاشغال الخارجية والمالية. وكان هذا المنصب يحمل أسماء أخرى، مثل: «لواء القلم الأعلى»، و«الرئاسة العليا»، أو «الكتابة العليا لقلم الإنشاء»، وكان كبار الأدباء الذين امنهونوا خط الكتابة غالبًا ما يرتقون إلى رئاسة القلم الأعلى. كانت وظيفة الكتابة موجودة في مملكة غرناطة منذ عهد السلطان محمد الأول الغالب بالله، الذي حفل قصره وديوانه بعدد من الكتاب ممن توافرت فيهم الشروط والمواصفات التي يجب أن يتصف بها كتاب الدولة، مثل الكاتب المحتسب أبي الحسن علي بن محمد بن هبضم الرعيني، والكاتب أبي بكر بن أبي عمر اليحصبي اللوشي. ومن تولى هذا المنصب أيضًا الفقيه القاضي أبو بكر بن شبرين، وأبو عبد الله بن عاصم، والفقيه أبو إسحاق بن جابر، وأبو عبد الله بن اللوشي، والرئيس أبو محمد الحضرمي، ومن اعتلى هذا المنصب كذلك شيخ الكتاب ورئيس الديوان أبو الحسن علي بن الجياب، وكان من العلماء وكبار الأدباء الذين حفل بهم عصره. برع في صناعة الكتابة حيث دبج بقلمه عددًا من الرسائل للسلطان أبي الحجاج يوسف الموجهة إلى من تربطه بهم علاقات من ملوك النصارى والمسلمين. وقد تولى ابن الجياب هذا المنصب في عهد أبي الوليد إسماعيل، ولابنه من بعده السلطان عبد الله محمد، ثم لأخيه السلطان أبي الحجاج يوسف. واستمر في عمله بديوان

الإنشاء حتى ظفر برئاسته إلى أن توفي في محنة الوباء الكبير في 23 شوال 749 هـ / 4 فبراير 1349 م ، كما تولى هذا المنصب لسان الدين بن الخطيب على عهد الملك أبي الحجاج يوسف وتذكر المصادر أحد مشاهير علماء الأندلس الذين تولوا منصب الكتابة بديوان السلطان أبي الحجاج وهو الكاتب أبو عبد الله محمد بن جزى الكلبي ، من مواليد غرناطة ، أظهر براعته في صناعة الكتابة ، حتى فاز بإعجاب معاصريه من الأدباء إلى أن دس له أعداؤه عند أبي الحجاج فغادر الأندلس متجهاً إلى المغرب ، فالتحق بديوان الكتابة للحضرة المرينية بفاس لدى السلطان أبي عنان فارس المريني ، ومكث ببلاط هذا السلطان إلى حين وفاته يوم 29 شوال 757 هـ / 23 أكتوبر 1356 م .

فديوان الإنشاء كان له أهمية كبرى داخل النظم الإدارية لمملكة بني نصر ، إذا يتولى أصحابه تحرير الرسائل السلطانية وتسطير المراسيم الملكية المتعلقة بتعيين الولاة أو القضاة أو القواد ومن إليهم ، كما يدخل ضمن اختصاصات الكتاب أيضاً تحرير القوانين العامة والخاصة ، وربما تقلد هذا المنصب وزير السلطان نفسه . لم يقتصر نظام الدواوين بمملكة غرناطة النصرية على ديوان الإنشاء فقط ، بل كان بجانبه ديوان الجند المكلف بكل ما يخص جند الدولة ، كتحديد أعدادهم ، ومقدار رواتبهم ، وإثبات عدد عيالهم لتأمين معاشهم . وكان أيضاً ديوان العطاء ، وديوان الحساب ، وديوان الأعمال ، لكن المصادر لم تفصل في تحديد مهام هذه الدواوين . إضافة إلى الوظائف المتعددة التي ذكرناها وجدت وظائف أخرى بمملكة غرناطة كوظيفة التطبيب ؛ وكان صاحب هذه المهنة مرتبطاً بالقصر يعمل فيه بانتظام كموظف رسمي . وعن شغل هذا المنصب محمد بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالشقوري ، وسيأتي الحديث عن الطب بغرناطة لاحقاً . كما ضم القصر وكيل الدار وقهرمانها وهو المتصرف في الشؤون الداخلية ، وعن تولى هذه الوظيفة والد إبراهيم بن فرج بن عبد

البر الخولاني، الذي تولى أبوه القهرمة لثاني ملوك النصريين فتائل مالا ونباهة. كان الجيش من أهم المؤسسات الاجتماعية في إسبانيا الإسلامية، وأهميته تبرز في ضخامة المسؤولية الموكلة إليه، والملقاة على عاتقه، للدفاع عن كل شبر من أرض البلاد كلما اشتدت وطأة الضغط المسيحي على القواعد الإسلامية. إن بقاء أية دولة ومحافظتها على استقلالها رهينان بسياستهما الدفاعية، وبامتلاكها جيشاً قوياً من حيث العدة، والعتاد والتدريب، وارتفاع الروح المعنوية، وتحصينات منيعة من قلاع وأسوار وأبراج، ومواضع إستراتيجية. وكان حكام غرناطة واعين كل الوعي الإشكاليات الظرفية التاريخية التي يعيشونها؛ لذلك انصب اهتمامهم على الجوانب الأمنية والدفاعية منذ تكوين دولتهم. ومهما كبر حجم هذا الاهتمام فإنه يتضاءل أمام اهتمام القوى النصرانية بجيشها وبقواتها، وتربصها بقواعد المسلمين في الأندلس من كل جانب؛ فموقع غرناطة بين ثلاث دول مسيحية: قشتالة، وأراغون، والبرتغال جعل شعبها دائم الاستعداد للقتال. وتؤكد بعض المصادر أن أهل غرناطة كانوا يخرجون إلى الفحوص المجاورة المتاخمة لحدود العدو أيام الأعياد حاملين أسلحتهم معهم؛ ليكونوا على أهبة الاستعداد لأي هجوم، أو لأي اعتداء. ولعل الاحتفالات الشعبية التي تقام إلى الآن في إسبانيا، والتي يمثل خلالها القتال بين المسلمين والمسيحيين فيما يعرف بـ Mo-ros Y Cristianos تعكس بوضوح الحياة الحربية التي كانت سائدة في إسبانيا في العصور الوسطى. كان الملوك النصريون يحرضون على الجهاد الذي يباركه الإسلام ويدعو إليه، ولا سيما وأن غرناطة غدت جزيرة إسلامية تتوسط بحر النصرانية. ويذكر النباهي أن القاضي أبا القاسم عبد الرحمن بن ربيع الأشعري كتب عن سلطانه في تحريكه القبائل للجهاد: بما يشحذ العزائم ويوقظ النائم. وهذا يعني أن مهمة التحريض على الجهاد لم تقتصر على

سلاطين بني الأحمر فقط، بل أدى كبراء القوم أيضاً دورهم الكبير في استنهاض الهمم، والدعوة إلى الجهاد كالحاجب أبي النعيم رضوان الله، ولسان الدين بن الخطيب اللذين أسندت إليهما مهمة قيادة الجيش بجانب الوزارة والحجابه كما سبق الإشارة إلى ذلك. ولعل أبلغ ما كتبه ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب للحث على الجهاد والترغيب فيه قوله: أيها الناس رحمكم الله، إخوانكم المسلمون قد دهم العدو ساحتهم، ورام الكفر - قبحه الله - استباحتهم، ورحفت القوات أحزاب الطواغيت عليهم، ومد الصليب ذراعه إليهم. وأيديكم بعزة الله القوي، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فأنصروه، وجواركم القريب فلا تحفزوه، وسبيل الرشد قد وضع فلتبصروه. الجهاد فقد تعين، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبيّن، الله الله في الإسلام، الله الله في أمة محمد عليه السلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فاغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة، أعانكم الله على الشدائد. جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد. ونستشهد مرة ثانية بقول الشاعر والكاتب والرئيس ابن زمرك الذي يستنهض فيه همم الشعب الغرناطي إذ قال: إن هذا الجهاد وليمة، دعا الله عباده إليها، وحضهم عليها، فالآيات في المصاحف مسطورة، والأحاديث مشهورة، لبيع النفوس فيه للرحمن، وبذل المهج رغبة في حصول ثواب الملك الديان، ينزل الله فيها الملائكة المسومين، وتفرح الحور العين، وتسبح الرحمة من رب العالمين ويباهي الله ملائكته بالمجاهدين. كانت حماية المدن الأندلسية تتم وفق نظامين متباينين: أحدهما داخلي يعتمد فيها على الشرطة والعسس، والثاني خارجي وتوكل مهمته إلى الجيش الذي يستقر في القلاع والقصبات والحصون؛ لضبط المراقبة، والتحكم في حماية المدن

وضواحيها، وهذا ما يفسر لنا أن العدو المسيحي لم يستول على غرناطة إلا حين تمكن من حصونها الواحد تلو الآخر في فترات متفاوتة. كان الجيش في مملكة غرناطة يتكون من صنفين من الجنود: أندلسي ومغاري؛ أما الأندلسي فقد كانت تستند قيادته إلى رئيس من القرابة أو إلى شخص من كبار الدولة، وأما المغاري فيعود أصله إلى قبائل مرينية كالزناتية والتيجانية والمغراوية والعجيسية، إضافة إلى قبائل العرب بالمغرب، وكان هذا الجيش يرجع في أموره إلى رئيس هذه القبائل. وكانت تمثل الفرق المغاربية مجموعة من الفرسان المتطوعين في الجيش الغرناطي يعرفون بجنود الغزاة، اشتهر قادتهم باسم «شيوخ الغزاة»، وهم من الأسرة الحاكمة من المرينيين. وقد توارث سلاطين بني الأحمر هذا التقليد الحربي في تاريخ إسبانيا الإسلامية - أي اعتمادهم على مشيخة الغزاة - ولعل هذا التقليد يعزي أساساً إلى توثيق الروابط العسكرية، وتبادل الخبرات الحربية بين المغرب والأندلس، وأيضاً ليكون هؤلاء القادة العسكريون همزة الوصل بين القطرين في كافة شؤون المسلمين؛ لذلك لا تعجب إذا رأينا ملوك بني الأحمر - ومن بينهم السلطان يوسف الأول - يعتمدون على هؤلاء القادة، ويجعلون زمام الأمر بين أيديهم لقيادة الجيش. وقد عين السلطان يوسف الأول الشيخ أبا ثابت بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق رئيساً للجنود المغاري. وقد حظي هؤلاء الغزاة بالمحل الأرفع والمكان الأنفع داخل بلاط ملوك بني نصر بكل ثقة واطمئنان. ويعزي اعتماد النصريين على هؤلاء القادة أيضاً إلى زعيمهم في التقريب من بلاط فاس، وإلى شهرة القواد المغاربة وشدة بأسهم في فنون الحرب، ومواقفهم المشهودة في الجهاد، وطول تجربتهم في القتال. ويؤكد ابن خلدون هذه الرغبة في الاعتماد على أقارب بني مرين سلاطين المغرب، لكون هؤلاء السلاطين أول من ولي إسبانيا الإسلامية عند استيلاء بني عمهم على ملك المغرب لشدة

التنافس بينهم. ومن أبرز الأسر التي أوكلت إليها مهمة قيادة الجيش أسرة العلا «بني العلا»، على رأسها شيخها عثمان بن أبي العلا إدريس بن عبد الله. وكان لهذه الأسرة منذ بروزها على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية أطماع في حكم المغرب، لكن عندما تحطمت آمال رعيمة الشيخ عثمان بن أبي العلا، بعد انهزامه أمام جيش السلطان سليمان ابن ربيع المريني عام 708 هـ/ 1309 م، فر إلى بلاد إسبانيا الإسلامية بصحبة أسرته، والتحق بغرناطة التي كان يحكمها آنذاك السلطان نصر أبو الجيوش (708 هـ/ 1308 - 1313 م) وأوكلت مهمة قيادة جيش إسبانيا الإسلامية إلى الشيخ عثمان في عهد السلطان أبي الوليد إسماعيل (الأول) (713 - 715 هـ/ 1314 - 1325 م) فأبرز هذا الأخير قدراته وكفاءته الحربية في عدة مواجهات ضد النصارى بأرض الجهاد، فنال مكانة مرموقة لدى السلطان النصري؛ فعظم قدر هؤلاء الغزاة، واعترف الملوك بشجاعتهم وكفاءتهم القتالية مما جعلهم يتمسكون بهم، ولعل ما يذكرنا به المقري حول ما كتب على قبر الشيخ عثمان ابن أبي العلا، لدليل على ما أكدناه سابقاً من قوة وشجاعة هؤلاء القواد المغاربة؛ فقد كتب على قبره: هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال الكماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علم الأعلام، حامي رمام الإسلام، حاجب الكتائب المنصورة والأفعال المشهورة، والمغاري المسطورة. ماضي العزائم في جهاد الكفار، مصادماً بين جموعهم تدفق التيار، وصنع الله تعالى له فيهم من الصنائع الكبار، ما سار ذكره في الأقطار.

وإذا كانت أسرة أبي العلا قد حققت انتصارات عديدة للعرش النصري في حروبه ضد الإسبان، وأدت أدواراً بارزة في استتباب الأمن والاستقرار داخل مملكة غرناطة، فإنها كانت أيضاً شوكة خطيرة في جنب عرش بني الأحمر؛ إذ أصبحت تتدخل في تعيين الملوك لإزاحتهم، كما فعلت مع محمد

أبي الوليد إسماعيل الذي تولى العرش 725 هـ/ يونية 1325 م وثار شيوخ الغزاة عليه، وأعانوا عليه الأمير محمد بن فرج بن إسماعيل. الشيء نفسه سلكوه مع هذا الأخير الذي أراحوه عن العرش، وقاموا بأنفسهم بتولية الملك الجديد وأخذ البيعة له من الرعية، وهو السلطان أبو الحجاج يوسف الأول. إذا كانت حياة غرناطة حياة حرب وقتال، وساعدها موقعها الجغرافي المميز، المحاط بجبال وتلال ومغاور وعرة، في التصدي لأعدائها النصاري. وقد أشرنا في الفصل الخاص بالعمران إلى أنه كان من نتائج الصراع المرير الذي عاناه المسلمون في الأندلس ضد القوات المسيحية، أن عمدوا إلى تحسين وسائل دفاعهم وتفننوا وأبدعوا في صلابتها ومناعتها، فاستعملوا تحصينات لتضليل الأعداء ومفاجأتهم، كالأسوار التي أصبحت تضم دربًا يسير عليه المحاربون سماه المؤرخون «عمشى السور» يضم شرفات تقذف منها السهام، وذروات يحتمي بها المجاهدون، دون أن يمسا بسهام العدو، بينما كانت الأبراج تدعم الأسوار لحماية البلاد من هجومات العدو، وقد بلغت كما أشرنا سابقاً أربعين برجاً. أولى ملوك غرناطة الجيش اهتماماً بالغاً لإقرار دعائم الطمأنينة والأمن في البلاد، وكان شباب المملكة بارعين في فنون القتال إذ كان الصبيان منذ صغرهم يدرّبون على السلاح كما يتعلمون القرآن. قال ابن الخطيب مشيراً إلى الاستعدادات الحربية لشباب غرناطة: والصبيان تدرّب على العمل بالسلاح، وتعلم الثقافة كما تعلم القرآن في الألواح. وهذا يعني أن الظروف القاسية المحيطة بغرناطة فرضت استعمال الأسلحة على جميع أفراد المملكة حتى الأطفال، الذين برعوا واشتهروا باستعمالهم المتقن للقلوس والنشاب، وتريش السهام بشكل أثار إعجاب أعدائهم النصاري. وضم الجيش الغرناطي فرقاً من الرماة والفرسان التي اشتهرت ببراعتها في القتال، وكان سلاح أغليبيتهم العصا الطويلة المثناة بعضاً ذوات عرى في أوساطها تدفع

بالأنامل عند قذفها تسمى «الأمداس»، كما اعتمد سلاطين بني الأحمر على بعض أنصارهم وأصهارهم كالسلطان محمد بن يوسف نصر الذي أرسى دعائم دولته بمساعدة أصهاره من بني أشقيلولة؛ كون هؤلاء نواة الجيش الغرناطي، تسند قيادتهم إلى أقرباء من الأسرة المالكية أو إلى شخصيات مشهورة بغرناطة. وكان أهل غرناطة دائمي التأهب والاستعداد لمحاربة العدو. ويذكر ابن الخطيب - كما سبقت الإشارة - أنهم كانوا يخرجون إلى الفحوص في أيام الأعياد حاملين أسلحتهم لمجاورة أرضهم العدو.

أما أسلحة الجيش الغرناطي ولباسه فكان في البداية: يشبه زي أعدائهم من جيرانهم الفرنج: إسباغ الدروع، وتعليق الترس، وحفا البيضات، واتخاذ أعراض الأسنة، وبشاعة قرايبس السروج واستركاب حملة الرايات خلفه وقال ابن سعيد الأندلسي أيضاً عن زي وسلاح الجيش في الأندلس وكثيراً ما يتزياً سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم؛ فسلحهم كسلحهم، وأقبيتهم من الأشكرلاط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم، ومحاربتهم بالتراس والرماح الطويلة للطن، ولا يعرفون الدبابيس ولا قسي العرب، بل يعتدون قسي الإفرنج. أما أعلام الجيش الغرناطي، فكانت حمراء، فضلاً عن أعلام أخرى ذات ألوان مختلفة. وتتفق الأوصاف التي أفادنا بها لسان الدين بن الخطيب عن الجيش الغرناطي مع الصور التي رسمت على جدران أحد مباني قصور الحمراء المعروف بالبرطل - يطلق لفظ البرطل على مجموعة من المباني بقصر الحمراء شرق بهو السباع ويقابل البرطل في اللغة الإسبانية El Parca. والقصر يشمل مجموعة من الرسوم على جدرانه، تشير إلى مناظر صيد وفرق الجنود بملابسهم وسلحهم، ورخارف هندسية جميلة. وهي صور تشير إلى أن ألبة وأسلحة الجيش الغرناطي تختلف باختلاف فرقته المكونة له؛ ففرق حاملي القسي يرتدون العمائم والجباب ذات

الأكمام القصيرة، وأحياناً يرتدون قمصاناً مصاحبة بسرراويل طويلة تصل إلى الكعبين، بينما فرق حاملي قسي القدم والدرق والسيوف، يغطون رؤوسهم بخوذات من حديد بدل العمام، وقد تتدلى هذ الخوذات من الورا لحماية القفا. أما الأتباع فيلبسون جبة تصل إلى الركبة، وسراويل طويلة تصل إلى الكعبين، أو قمصاناً مع هذه السراويل، ويغطون رؤوسهم بالعمائم. أما لباس الأرجل لهذا الجيش فتتمثل بالأحذية أو الخفاف، بينما جنود الغزاة المغاربة كانوا يلبسون العمام على رؤوسهم، كما شاع لدى جيش إسبانيا الإسلامية استعمال الأقواس الإفرنجية في حروبهم والسيوف أيضاً، خاصة السيوف الغرناطية والتي أعجب بها ملوك إسبانيا المسيحية، والتي كان ملوك غرناطة وفي مناسبات مختلفة يهدونها لهؤلاء الملوك، وهي سيوف بديعة الشكل مزينة برقائق من الذهب والأحجار الكريمة، كالسيف الذي أهده السلطان محمد الرابع إلى ألفونسو الحادي عشر عام 734هـ / 1333م. إلى جانب الأسلحة السابقة الذكر كانت أسلحة أخرى متعددة ومتنوعة كالتى تستعمل في الحصار كالمعارج «المراقى» والسالام والأكبش وعمدان الحديد، التى كانت تستعمل لاختراق أبواب الأسوار والحصون. وقد ذكر لسان الدين الخطيب استعمال الجيش الغرناطى للمدافع خاصة عند احتلالهم قلعة أشكر Huescar عام 724هـ / 1324م في عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل: ونازل السلطان أشكر ونشر الحرب عليها، ورمى الآلة المتخذة بالنفط، كرة محماة طباقه البرج المنيع، فعاشت عياث الصواعق السماوية، ونزل أهلها قسراً على حكمه. عن هذه الآلة يقول الشاعر يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي في مدحه السلطان أبى الوليد إسماعيل عند قدومه من فتح هذه القلعة يصف فيها آلة لا تحدث نارا عند انطلاقها، وإنما تحدث فرقة وهديرًا لذا سميت بصواعق النفط⁽¹⁾.

(1) د. أحمد ثابت - نفس المرجع ص 222.

كان الجيش الغرناطي يخضع لرقابة صارمة من ولاية الثغور، وكان كل جندي تهاون في رعاية وصيانة سلاحه يحرم من راتبه، بينما يحظى بمكافأة إذا اهتم بمطيبته ومعداته. وقد كان في غرناطة ديوان خاص بالجند، يهتم بشؤونهم ورواتبهم ومرتباتهم. وقد أعيد تنظيم سجلات للجند منذ عهد السلطان محمد الخامس، لما لهذا الجيش من أهمية في ضمان الاستقرار وحفظ النظام. وبرز بمملكة غرناطة عدد من القادة الذين تولوا قيادة الجيش وأبلاوا البلاء الحسن في معاركهم ومواجهاتهم ضد أعدائهم النصارى، نذكر من بينهم القائد بكرون بن أبي بكر الأشقر الحضرمي من القادة العسكريين المحنكين، فارس مقدم شديد العزم، كان قائداً للجند بإسبانيا الإسلامية أيام السلطان ثاني ملوك بني نصر، وجنى الجيش على عهده مغنم كثيرة، توفي عام 714 هـ ودفن بمقبرة قومه بباب البيرة. كان من عادة ملوك غرناطة استعراض جيوشهم أمام الشعب الغرناطي؛ الذي كان مولعاً أيضاً بمشاهدة هذه المناظر العسكرية. إذ يتقدم الملك مع جموع جيشه في موكب عظيم، إما في أثناء اتجاهه إلى ساحة القتال، وإما عند عودته منها بالغنائم والأسرى. ولقد وصف لنا لسان الدين بن الخطيب في رحلته: «خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف» ركب السلطان أبي الحجاج يوسف الذي انطلق من العاصمة غرناطة يوم الأحد 17 محرم 748هـ/ 29 أبريل 1347م - حيث انتظم الموكب يتقدمه الأولاد الراشدون من ذوي الخبرة بمسالك الجبال والسهول الأندلسية، تليهم الأعلام الحمراء شعار دولة بني نصر. وقد ورد في كتاب نبذة العصر عرض لجيوش غرناطة في المكان المعروف بالطبلبة عند باب الغدر Siete Suelos وهو المنظر العظيم الذي فاجأه الفيضان المهول لنهر حدره عام 887 هـ/ 1472 م والذي حملت سيوله مرافق وحدائق غرناطة. كان لمملكة غرناطة ساحل طويل يمتد من المرية شرقاً إلى جبل طارق والجزيرة الخضراء جنوباً، مما دفع

ملوكها إلى الاهتمام بالمجال البحري. وهذا ما يفسر وجود العديد من الثغور والقواعد البحرية بهذا الساحل كالمرية ومالقة والمنكب وبجانة وشلوبانية والجزيرة الخضراء وجبل طارق. وقد ضمت معظم هذه القواعد دوراً لصناعة السفن وبنائها، خاصة المرية والمنكب ومالقة التي كانت المزود الرئيس للأسطول الحربي الغرناطي بكل قطعه اللازمة. وساعد على ذلك وجود أنواع متعددة من المعادن في غرناطة. فابن الخطيب أشار إلى المرقشيثا واللازورد. كما أكد بعض الجغرافيين وجود معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد والنحاس والصفر والتوتياء في منطقة البيرة التي حلت غرناطة محلها، كما كانت أشجار النور تغطي سفوح جبال الثلج، والتي شكلت ثروة خشبية هائلة. مما مكّن غرناطة من المواد اللازمة لصناعة السفن لمواجهة الأعداء المسيحيين من جهة البحر؛ لذا ازدهرت هذه الصناعة في المدن التابعة لها؛ لأنها كانت بعيدة عن البحر المتوسط كمدينتي مالقة والمنكب التي برعت في صناعة السفن وصناعة الحراقات. ويؤكد المؤرخ العمري في كتابه: «مسالك الأبصار» وجود هذا النوع من صناعة السفن على عهد بني نصر.

نتيجة للهجمات المستمرة التي كانت تتعرض لها مملكة غرناطة من قبل النصارى، قام ملوكها بتحصينها، فأنشأوا فيها قواعد متعددة خاصة التي كانت أكثر عرضة للهجوم، وبنوا فيها أسواراً منيعة وأبراجاً، كأبراج الطليعة التي كان يعملونها ما يسمى: ناظور البرج الذي كان ينسب الحامية الغرناطية بالساحل لهجمات الممالك المسيحية، ويتم إنذارها إما بإشارات الدخان أثناء النهار، وإما بإضرام النار في أثناء الليل. وبالرغم من الاهتمام الكبير الذي أولاه ملوك غرناطة أسطولهم البحري، فقد كان هذا الأخير أقل أهمية مقارنة بالأساطيل المسيحية، ونستدل على ذلك بسيطرة المسيحيين أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي على حركة النقل البحري في حوض

البحر المتوسط، ثم بتأكيد الملوك النصارى في بعض معاهداتهم مع مملكة أراغون أكثر اهتمام لسفن حربية، كمعاهدة الصلح التي عقدها محمد الرابع مع ملك أراغون Don Martin وشقيقه ملك صقلية في 25 ربيع الأول عام 808 هـ/ سبتمبر 1405 م، والتي تعهدت فيها مملكة أراغون بمد أسطول مملكة غرناطة في حالة حاجتها إلى أربعة أو خمسة أجفان، في كل واحدة منها مائتان وعشرون رجلاً، إلا أنها إعانة مشروطة بتقديم مبلغ من المال، لكل جفن مقدار تسعمائة دينار من الذهب شهرياً مدة الخدمة، وأن تُقدم الدولتان بعضهما لبعض تسهيلات بحرية. وعن الأسطول الغرناطي أشار العمري قائلاً: وبالبلاط البحرية أسطول حراريق للغزو في البحر الشامي، يركبها الاتحاد من الرماة والمغارين، والرؤساء المهرة، فيقاتلون العدو على ظهر البحر، وهم الظافرون في الغالب ويغيرون على بلاد النصارى، بالساحل أو بقرب الساحل، فيستأصلون أهلها ذكورهم وإناثهم، ويأتون بهم إلى بلاد المسلمين، فيبرزون بهم ويحملونهم إلى السلطان، فيأخذ منهم ما شاء ويهدي ويبيع. كان الأسطول البحري الغرناطي يشتمل على عدة قطع تختلف في أشكالها وأحجامها وفي مهامها أيضاً. فكان الأسطول يضم:

الحراريق: وهي سفن حربية تستخدم لحمل الأسلحة النارية.

العشاري: سفن متوسطة الحجم تختص بالرحلات القصيرة، لكنها تلتقي أحياناً بالسفن الكبيرة؛ لتكون مراكب للنجاة، واسمها يعود إلى كونها تستطيع حمل عشرة أشخاص. الشواتي: سفينة حربية ضخمة كانت تتكون من عدة طبقات كالقلعة تسمى بالإسبانية Galera مزودة بأبراج وقلاع للدفاع، كما تضم أهراء لحزن القمح وصهاريج لحزن الماء. الأجفان: وهي نوعان: الأولى غزوية، والثانية تستخدم لنقل الخيل. الطريدة أو الطراد: سفينة صغيرة أطلق عليها الإسبان اسم Tarida وتستخدم لنقل الخيل. البطس: سفينة حربية

عظيمة تضم عدة طبقات وعدة قلاع، تستخدم لنقل الزاد والذخيرة والرجال. الأغربة: هي سفن شديدة البأس، واسمها يرجع إلى اقتراب شكل مقدمتها من شكل الغراب، أو لشدة سوادها. المسطحات: نوع من السفن المسطحة أطلق عليها الإسبان اسم Mestech. القراقير: سفينة ضخمة تستخدم لنقل المؤن يطلق عليها بالإسبانية اسم Carraca.

ولعل وجود مختلف هذه القطع المصاحبة للأسطول الغرناطي دليل على المواجهات العنيفة والمتعددة التي كانت تتعرض لها غرناطة من جهة البحر من أعدائها المسيحيين. أما دور هذا الأسطول في التجارة فستعرفه في أثناء دراسة النشاط الاقتصادي. إذا كان جيش إسبانيا الإسلامية يتألف من قوتين: قوة برية ترابط في الأقاليم الأندلسية خاصة كبريات المدن منها، وقوة بحرية ترابط بالثغور كطريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق والمرية والتي كانت تستخدم الأساطيل لحماية البلاد باستعراضات متعددة يستخدمون فيها الأبواق والطبول. وأشار ابن الخطيب إلى رجال الأسطول في المرية، وقد قاموا بعروض عسكرية رائعة عند مرور السلطان بها عام 748 هـ/ 1347 م قائلاً: امتاز خدام الأساطيل المنصورة في أحسن صورة، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول. وكان لهذه القوات البحرية لباس خاص. أما أسلحتهم فالقسي التي كانت تشد بواسطة الرجل أو اليد. ثم المجانيق، كما استخدموا الكلاب التي يلقفون بها مراكب العدو، يشدونها ويوقفونها، واستعملوا أيضاً أدوات الحصار كالآبراج والسلالم والحبال.

أما مهمة قيادة هذا الأسطول فكان يتولاها ضابط عسكري يدعى: «قائد البحر»، أو «قائد الأسطول» وقد برز بغرناطة عدد من هؤلاء الضباط الذين تولوا قيادة الأسطول في إسبانيا الإسلامية وفي المغرب أيضاً، خاصة أسرة

الرنداحي، نسبة إلى بلدة Randazzo بصقلية. منهم العباس الرنداحي الذي أعام بأسطوله أبا القاسم العزفي عندما أراد الاستقلال بسبته وطنجة عن طاعة الحفصيين ثم أبو علي الرنداحي المتوفى بمراكش عام 755 هـ. ومن القادة الذين تولوا قيادة الأسطول الغرناطي كذلك أبو عبد الله محمد بن سلبطور الهاشمي الذي ذكر ابن الخطيب أنه ناب في القيادة البحرية⁽¹⁾.



(1) د. أحمد ثابت - نفس المرجع ص 229.

العلاقات الخارجية

إلقاء الضوء على الخلفية التاريخية لبلاد إسبانيا الإسلامية ذلك الجزء الذي احتل من قلب العالم مساحة ليست بالهينة أو البسيطة، وذلك لأن الإحداثيات العباسية فوق المنحنى التاريخي الواقع على صفحة تاريخ إسبانيا الإسلامية لا يمكن لها أن تفصل عن باقي تاريخ إسبانيا الإسلامية بل هي صفحات ضمن كتاب عريق، اهتم به مؤرخو الغرب، كما اهتم به أقرانهم في الشرق، ولو أن إسبانيا الإسلامية باعتبارها جزءاً من الرقعة الأوروبية حظيت دون غيرها باهتمام مؤرخي أوروبا، الأمر الذي جعل تاريخها أكثر انتشاراً وأوسع معرفة لدى قطاعات عريضة وهو ما لم يتوفر لدولة أو بقعة أخرى شهدت تاريخ الإسلام والمسلمين، ومع تلك المعالم الهامة عن أحداث الأندلس فإن ظهور الدولة العباسية على المسرح التاريخي، أتاح للتاريخ الأندلسي أن يتمتع بهذه الأهمية، أو هذا الاهتمام. وتتجلى أهمية إسبانيا الإسلامية فيما ذكره المؤرخ الكبير (ابن عذارى المراكشي) عن صفة إسبانيا الإسلامية وأهميتها حيث قال: «أما صفة إسبانيا الإسلامية، فإنها جزيرة مركنة (ذات ثلاثة أركان) قريبة من شكل المثلث: الركن الواحد منها عند صنم قادس، والركن الثاني في بلاد جليقية وهو مقابل لجزيرة برطانية، حيث الصنم المشبه بصنم قادس، والركن الثالث بناحية الشرق بين مدينة أربونة، ومدينة برذيل حيث هو قرب البحر المحيط الغربي من البحر المتوسط الشامي وكاد البحران هناك أن يجتمعا في ذلك الموضع، فتصير إسبانيا الإسلامية في جزيرة لولا جزء بسيط مما بقي منها، وهو مسيرة يوم كامل، وفيه مدخل يقال له الأبواب، وفيه تتصل إسبانيا الإسلامية بالأرض الكبيرة، فالأندلس كلها محدقة بالبحر: البحر المحيط الغربي، والبحر المتوسط القبلي ويصعد منه قليل إلى ناحية الشرق، فحد إسبانيا الإسلامية في الشرق والغرب وبعض جوف

البحر المحيط، وحدها في بعض القبلة والشرق البحر المتوسط، إلا أنه يتوسط الأرض كلها وقيل أنه في آخر الأقاليم السبعة. ولعل هذا الذي ذكره ابن عذارى في وصف جغرافية إسبانيا الإسلامية ذكره أيضاً صاحب معجم البلدان (ياقوت الحموي) وزاد عليه أن لفظ الأندلس كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفت العرب في الإسلام، ويذكر ياقوت الحموي في كتابه ما ذكره ابن حوقل - التاجر الموصلي - بعد أن طاف أرجاء الأندلس فكتب عنها أنها جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، وطولها نحو الشهر في نصف وعشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية والأجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال وعرض فم الخليج الخارج من البحر المحيط قدر اثني عشر ميلاً بحيث يرى أهل الجائنين بعضهم بعضاً ويتبنون روعهم ويبادرهم، وهي تواجه من على البحر تونس من أرض المغرب وإلى طبرقة إلى جزائر بني مزغناي (في بحر المغرب) ثم إلى نكور (في بحر المغرب أيضاً). ثم إلى سبتة ثم إلى أزيللي ثم إلى البحر المحيط، وتصل الأندلس في البر الأصغر من جهة جليقية وهي جهة الشمال ويحيط بها الخليج المذكور من بعض مغربها وجنوبها، والبحر المحيط من بعض شمالها وشرقها، من حد الجلالة إلى كورة شترين ثم إلى أشبونة ثم إلى جبل الغور ثم إلى ما لديه من المدن إلى جزيرة جبل طارق المحاذي لسبتة ثم إلى مالقة ثم إلى المرية فرضة بجاية ثم إلى بلاد مرسية ثم إلى طرسوسة ثم تتصل ببلاد الكفر مما يلي البحر الشرقي في ناحية أفرنجة، ومما يلي المغرب ببلاد علمجسكس، وهم جيل من الأنكردة، ثم إلى بسكونس ورومة الكبرى في وسطها ثم ببلاد الجلالة حتى تنتهي إلى البحر المحيط. وأما لفظ إسبانيا فقد كان المراد به شبه جزيرة أيبيريا بوجه عام بما في ذلك الأراضي الإسلامية والمسيحية على السواء فهناك إسبانيا الإسلامية وهناك إسبانيا المسيحية.

وكلمة اشتقها العرب من واندلوس، وهي اسم قبائل الواندال الجرمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي واستقرت في السهل الجنوبي الإسباني وأعطته اسمها. ثم جاء العرب فعرّبوا هذا الاسم إلى إسبانيا الإسلامية. وبعد سقوط مملكة غرناطة وانتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا 1492 م، أطلق الإسبان اسم أندالوثيا Andalusia على الولايات الجنوبية الإسبانية وهي المنطقة التي تشمل حتى اليوم ولايات قرطبة وإشبيلية وغرناطة. وتفصل إسبانيا عن بلاد الغال (فرنسا) جبال ألبرت أو الرتات التي تتخللها ممرات ومضايق بين البلدين مثل ممر هندايا في الغرب وممر قطالونيا في الشرق، وممر شيروزوا في الوسط، ويبدو أن كلمة برت مشتقة من كلمة (Porte) أي باب أو ممر. ولكن على الرغم من وجود هذه الممرات فإن جبال البرتات قد جعلت إسبانيا في عزلة عن بقية أوروبا. وهي في تضاريسها تشبه إلى حد كبير تضاريس المغرب العربي حتى أن المسلمين سموها جزيرة الأندلس مثل جزيرة المغرب، وجبال البرتات في إسبانيا تشبه إلى حد كبير جبال أطلس في المغرب، وجبال الثلج المعروفة باسم شيلر حول غرناطة تشبه جبال الريف في شمال المغرب، وسهل في الجنوب يقابل سهول تازا وسيو في المغرب وما يبدو أن هذا التشابه الجغرافي الكبير بين البلدين كان له أثر كبير في أن تتزامن وتتشابه الأحداث فيها، فهما في النهاية يشكلان معاً الطرف الغربي الأقصى للدولة الإسلامية أياً كان من يحكمها. أما عن مناخ إسبانيا الإسلامية فهو متنوع يختلف من منطقة إلى أخرى، فبينما يسود جهاتها الجنوبية مناخ البحر المتوسط المعتدل، ويدخل جزؤها الشمالي في نطاق مناخ غرب أوروبا البارد، وأدى هذا التنوع بجانب وعورة تضاريسها إلى صعوبة الاتصال بين مناطقها وانعزال كل جماعة من سكانها عن غيرهم.

ويعتبر جبل طارق قاعدة الوصل بين المغرب وإسبانيا الإسلامية، ويقع هذا الجبل في أقصى جنوب إسبانيا، وبلغ ارتفاع بعض أجزائه حوالي 438 متراً.

وكان يسمى قبل الفتح الإسلامي بأسماء عديدة أهمها الاسم الفينيقي Mons Calpe أي الجبل الأجوف. إذ كان هذا الاسم يطلق أصلاً على مغارة كبيرة في هذا الجبل سماها الإسبان فيما بعد باسم مغارة القديس ميخائيل، ثم أطلق عليها الإنجليز بعد احتلال هذه القاعدة اسم مغارة القديس جورج، وقد وصفه العرب بغار الأقدام لوجود آثار أقدام فيه، وبعد الفتح الإسلامي لإسبانيا أطلق المسلمون على هذا الجبل اسم الصخرة، وفرضة المجاز وجبل الفتح، وجبل طارق. وهذا الاسم الأخير هو الاسم المعروف به حتى اليوم في جميع اللغات نسبة إلى فاتح إسبانيا الإسلامية الشهير طارق بن زياد.

وهناك مضيق جبل طارق الذي من خلاله يمكن - في يوم صحو - رؤية الشاطئ المغربي من الشاطئ الإسباني وبالعكس. وفي هذا نرى أن مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن إسبانيا الإسلامية، مسافة ضيقة لا وزن لها من ناحية الانتشار العسكري أو الثقافي أو الاقتصادي بينهما.

فكل من البلدين إذن يعتبر منطقة أمان للآخر، وامتداداً له في الدم والجوار، والأخذ والعطاء. ومن هنا وجدنا دائماً ذلك الصراع التقليدي المستمر بين الشاطئين الأفريقي والأوروبي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق والتي تعرف باسم العدوتين. عدوة المغرب، وعدوة الأندلس والعدوة هنا معناها الجانب أو الشاطئ، حتى إن البعض من الجيولوجيين يذهب للاعتقاد بأن البلاد المغربية كانت متصلة بإسبانيا في العصور الجليدية في العصر الحجري القديم، وقد استدلوا على هذا من البقايا البشرية العظيمة

التي عثروا عليها في الكهوف والمغارات الساحلية في هذه المنطقة مثل مغارات قلب (Calpe) في جبل طارق، ومغارة العالية وأشقر بجوار طنجة، ودار السلطان جنوب الرباط، والخنزيرة جنوب الجديدة، وعلى هذا يفترض أن عبور الإنسان العاقل إلى أوروبا كان من هذه المنطقة أثناء تراكم الجليد في منطقة المضيق، وليس من منطقة جبال القوقاز فحسب كما هو معروف. والطبيعة الإسبانية الجبلية كانت دائماً بمثابة شبكة دفاعية قوية فالسلاسل الجبلية والوديان النهرية التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق إلى الغرب أو العكس، شكلت خطوطاً دفاعية ضد أي هجوم يقع عليها من الشمال، وقامت على هذه الوديان، مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط، وقد برزت هذه الظاهرة على وجه الخصوص في ظل العهد الإسلامي في إسبانيا حين استغل المسلمون هذه الظاهرة الطبيعية في الدفاع عن أرضهم ضد المسيحيين في الشمال، ورأينا على نهر أبرو، وهو الخط الدفاعي الأول في الشمال لمدينة سرقسطة وكانت تسمى بالثغر الأعلى، وعلى نهر التاجو وهو خط الدفاع الثاني نشأت مدينة طليطلة وسميت بالثغر الأدنى، وبنيت كذلك عواصم إسبانيا الإسلامية مثل قرطبة وإشبيلية وقادس على نهر الوادي الكبير. وهكذا تداخلت الطبيعة الجغرافية تشارك هي أيضاً في صنع تاريخ إسبانيا الإسلامية وتصبغه بصبغة من ملامحها، وتلونه بألوان من فرشائها، فكان لا بد إذن من هذا التقديم الجغرافي للمبحث التاريخي الذي نحن بصددته وشأنه⁽¹⁾.

شهد العصر العباسي الأول الذي يمتد من 132 هـ إلى 232 هـ مرحلة هامة من مراحل تاريخ إسبانيا الإسلامية سياسياً وحضارياً، مما كان له أعظم الأثر في توجيه السياسة الخارجية للعباسيين مع قوى غرب البحر المتوسط.

(1) د. نايف عبيد جابر السهيل - السياسة الخارجية للدولة العباسية، ص 158.

وتبدأ أحداث هذه المرحلة مع حلول عام 129 هـ، حيث المرحلة الأخيرة من فترة الولاة في إسبانيا الإسلامية. فقد تولى يوسف الفهري المضري الإمارة في ربيع الثاني لهذا العام، وكان قد تولى الإمارة بعد اشتداد الفتنة والخلاف وتفاقم الخطر في إسبانيا الإسلامية، واتفق الزعماء على أن يتولى يوسف الولاية لمدة عام، ويتولى بعده أمير من اليمينية، بحيث تتبادل المضرية واليمينية الحكم لكل منهما لمدة عام، وقد حارب اليمينية، ولكنه أسند للمصميل ولاية سرقسطة ليعده عن مقر الإمارة، ووجه يوسف جهوده لإصلاح شئون الإمارة خاصة بعد أن حاول النصارى في الولايات الشمالية استرجاع السلطة في أقاليمهم. ومما زاد من المشاكل حلول القحط بإسبانيا الإسلامية على أربع سنوات من 131 هـ إلى 135 هـ مما حمل كثيراً من الناس على ترك إسبانيا الإسلامية إلى المغرب العربي، وكذلك مما زاد في اضطراب الأمور سقوط الدولة الأموية 132 هـ، وهكذا اختتم زمن الولاة أحداثه بظهور الفتن والاضطرابات والثورات. وفقد المسلمون تلك المناطق في جنوب فرنسا التي رويت بالكثير من دماء شهدائهم فقد استولى الفرنج على سبتمانيا، ولم يبق في يد المسلمين إلا مدينة أربونة سنة 138 هـ، التي وصل إليها بين ابن شارل مارتل بجيشه القوي، وضرب عليها حصاراً طويلاً صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوام، حتى استعان بين بخيانة القوط داخل مدينة أربونة فدخلها عام 142هـ/ 759م. وهكذا انتهى التواجد الإسلامي فيما وراء جبال البرنيس، بعد وجود دام قرابة نصف قرن، وفي نفس الوقت تمكن النصارى القوط من تكوين إمارة يسيطون منها سلطانهم على بلاد المسلمين في الشمال وساعدهم القحط الذي حل بالأندلس وجعل المسلمين يجلبون عن تلك البلاد. ولكننا في هذا الصدد، لا ننسى أنه رغم محاولات شارل مارتل وتجمع أوروبا كلها لمحاولة إجلاء المسلمين، وبعد خطوط القتال، وتغير ظروف البيئة فإن كل هذا

لم يثن المسلمين عن الإصرار على مواصلة الجهاد، والتمسك بما في أيديهم . وبدأت الأحداث السياسية لبلاد إسبانيا الإسلامية تشهد تطوراً جديداً بقيام الخلافة العباسية 132 هـ / 751 م . إذ تمكن أحد أبناء البيت الأموي وهو عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الداخل) من الهرب - من بني العباس - إلى المغرب حيث لجأ إلى إحدى قبائل البربر التي حمته، فأخذ يرأسل الأمويين في الأندلس متتهزاً فرصة النزاع بين المضرية واليمنية، وبدأ بتكوين الجيش الذي تحرك به إلى إسبانيا الإسلامية . وحاول يوسف الفهري والي إسبانيا الإسلامية إذ ذاك الإيقاع بين عبد الرحمن وجنده، ولكن أنصار عبد الرحمن أصروا على أن يتنازل يوسف لعبد الرحمن عن الملك، وكانت المواجهة العسكرية في موقعه «المصاراة»، وهو يوسف والصميل، ثم دخل عبد الرحمن قرطبة وصلى الجمعة بالناس في المسجد الجامع وقد أكرم عبد الرحمن يوسف والصميل - بعد ذلك - وعفا عنهما، ولكن يوسف غدر - بعد ذلك أيضاً - ثم قتل بعد إخماد فتته على يد عبد الله بن عمر الأنصاري، وقد قضى عبد الرحمن جهداً عظيماً في محاربة ثورات وفتن العرب والبربر والأقارب، وكان عبد الرحمن راجح الحلم، واسع العلم، حتى إن أبا جعفر المنصور وصفه بصقر قریش، وقد عمل عبد الرحمن على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الخضوع والانقياد للدولة وليس للعصبية ولا للقبيلة، ونظم الجهاز الحكومي، وأنشأ الحجابة، واهتم بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزة، وبلغ الجيش في عهده مائة ألف مقاتل، واهتم بالأسطول كما اهتم بمدينة قرطبة فسورها، وبدأ في إنشاء المسجد الأموي الجامع فيها عام 170 هـ، وأتمه ابنه هشام، وأنشأ داراً للسكة تضرب فيها النقود حسبما كانت تضرب في دمشق أيام بني أمية وزنا ونقشا. وتوفي يوم الثلاثاء لست خلون من ربيع الآخر عام 172 هـ .

تولى هشام بن عبد الرحمن إمارة الأندلس بعهد منه، بعد أن آثرو لإقناعه بأنه الجدير بها بين أبنائه، وقد ثار عليه أخوه الأكبر سليمان، ولحق به أخوه عبد الله البلنسي، ثم حين فشل سليمان عاد إلى هشام طالباً العفو، فعفا عنه، وعبر سليمان هو وأخوه عبد الله إلى عدوة المغرب وأقاما فيه سنة 174 هـ. وثار على هشام كذلك سعيد بن الحسين الأنصاري. وثار على هشام كذلك البربر عام 178 هـ، فسير إليهم جيشاً كبيراً بقيادة عبد القادر بن أبان مولى معاوية بن أبي سفيان فشنت جموع البربر، وبالقضاء على الثورات استتبّت الأمور الداخلية في البلاد ولكنها كانت دافعاً لتحرك الدول والإمارات المسيحية فأغاروا على حدود الإمارة الأندلسية، واقتطعوا منها الأجزاء وخاض هشام معارك عديدة، في أعوام 175 هـ، 177 هـ، 179 هـ، حيث اصطدم بالعديد من النصارى وملوكهم في ألبة وجرنده، وجليقية، وضرب هشام بهذا المثل في الذود عن حدود المسلمين، وكذا فقد اهتم هشام بمسجد قرطبة، وأنشأ عدة مساجد أخرى، ونشر العدل متحريراً بالحكم بالسنة والكتاب، حتى أنه قال لأحد الرجال وقد جاءه شاكياً القاضي: «والله لو سجل على القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه انقياداً منه للحق»⁽¹⁾. وتوفي هشام في صفر 180 هـ، وتولى أمور الإمارة من بعده ابنه الحكم وكان أقوى الأمراء وقد أحمّد ثورة المولدين ودانت له طليطلة، وكذلك أحمّد ثورة الربض. وقد دارت بين الحكم وبين الفرنج عدة معارك في عام 192 هـ حين تجهز الفرنج بقيادة لويس بن شالمان، وكذلك في عام 196 هـ حين واجه الفونس ملك جليقية، وكان آخر غزو للمسلمين في الشمال في عهد الحكم عام 200 هـ في جليقية، وحول نهر أرون، وقد أعطى الحكم عناية فائقة للجيش حتى قال ابن عذارى في

(1) د. نايف عبيد - نفس المرجع ص 161.

كتابه «البيان المغرب»، «أنه كان للحكم ألف فارس مرتبطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة من العرفاء تحت يد كل عريف مائة فارس، فإذا بلغه عن نائر ثار في أطرافه عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يحاط به. وتولى الإمارة من بعده ابنه عبد الرحمن بن الحكم في 206 هـ، وقيل له عبد الرحمن الأوسط، وعاصر المأمون والمعتصم، وكان لا يقل عنهما قوة وعزماً وشهرة، وهو الذي استكمل فخامة الملك بالاندلس وكسا الخلافة أبهة الجلالة. وثار عليه أهل ماردة. وأهل طليطلة، وقد تصدى عبد الرحمن في حزم لكل هذه الثورات وكذلك فقد قبض على أبي لوخيyo القسيس المتطرف الذي أراد أن يضرم نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين، وقد قتله عبد الرحمن فضعفت الفتنة شيئاً فشيئاً حتى زالت من نفسها. وقد حارب كذلك في حدود إمارته في ألبة والقلاع وفي منطقة الشمال الشرقي التابعة للفرنج، وبرشلونة، واجتاز دروب الألبت إلى بلاد الفرنجة وعاش في نواحيها، وعاد سالماً عام 226 هـ، وفي عام 231 هـ أرسل جيشاً بقيادة ابنه محمد إلى جليقية، ووصل إلى مدينة ليون وذلك بعد أن كان النورمان قدموا بأسطولهم وهاجموا أشبونة حتى أجلاهم جيش عبد الرحمن. فقد قام عبد الرحمن بالعديد من الإصلاحات الإدارية والمعمارية والصناعية والزراعية ورفع من شأن الوظائف العامة، وارتفع شأن الإمارة الأموية في عهده، وأصبحت الدول تخطب ودها، وتقيم معها علاقات سياسية، هذا وقد توفي عبد الرحمن الأوسط في ربيع الآخر عام 238 هـ. وظل الحال على هذا المنوال في إسبانيا الإسلامية، فالإمارة تنتقل من أمير قوي إلى آخر أقوى وأعظم خلا بعض الفترات العvisية التي تعرضت لها البلاد، فلم يكن عهد الدولة الأموية بإسبانيا الإسلامية عهداً كله هدوء وسكينة، فلقد تعرضت في فترات متعددة من تاريخها المعاصر للعباسيين لهزات عنيفة كان من الممكن أن تؤدي إلى إحداث خلخلة في بنائها

وتقوض أركانها. وهكذا بينما كان نجم العباسيين يسطع في بغداد كانت قرطبة تزهر وتتألق وتسير نحو المجد بخطى حثيثة، وأمرؤها يعلو صيتهم، وتزهو مكانتهم بين حكام العالم، ولم يكن أدل على قوة إسبانيا الإسلامية أكثر من نضالهم على عدة جبهات فهم يغزون التصارى. في الشمال ويخمدون الثورات في الداخل. حتى امتد سلطان الإمارة الأموية في إسبانيا الإسلامية إلى ما وراء البحر في العدو، ويسارع حكام المدن والولايات في الدخول في طاعة أمراء إسبانيا الإسلامية^(١). كان أمام العباسيين أربعة بدائل في رسم سياستهم الخارجية تجاه الإمارة الأموية بإسبانيا الإسلامية وتلك البدائل هي:

(أ) إما الإهمال وعدم المبالاة بوجود تلك الإمارة المسلمة التي لا بد للخلافة العباسية في تصريف أمورها، أو تدبير شئونها. (ب) إما الاهتمام بالقضاء عليها واستخدام المؤامرات الداخلية كوسيلة لتنفيذ هذا الغرض، وقد اتخذت الثورات التي قامت ضد أمراء إسبانيا الإسلامية كأدوات ووسائل لهذا الغرض. (ج) إما الاهتمام بالقضاء عليها، ولكن باستخدام المؤامرات الدولية كوسيلة لتحقيق هذا المآرب العباسي. (د) إما الاهتمام بمزيد الود والتقرب منها، ومحاولة استمالة حكامها نحو الخلافة العباسية.

فرض الأمر الواقع على العباسيين أن يلجأوا إلى البدائل الأربعة، ذلك أن العلاقة بين إسبانيا الإسلامية والدولة العباسية نشأت ترتوي جذورها من ماء التوتر، وتستقي من ينابيع الاضطرابات والقلق، لأن سيوف بني العباس لم تزل تنكل ببني أمية، وتعمل على إبادتهم بعد تقويض عرشهم، إلا أن واحداً من بني أمية لجح في الإفلات من أيدي العباسيين - رغم المحاولات العديدة التي قاموا بها لاقتناصه، وأسس الإمارة الأموية بإسبانيا الإسلامية.

(١) د. نايف عبيد - نفس المرجع ص ١٦٤.

وهكذا نرى أن أولى لَبَنَات التوتّر بين الخلافة العباسية في بغداد والإمارة الأموية في إسبانيا الإسلامية، قد تم إرساؤها بالخطوات التي خطاها عبد الرحمن بن معاوية وذلك حين لجأ لمنطقة الاضطرابات والتمرد والثورات على العباسيين وحكمهم، فالمغرب العربي في ذلك الوقت كان يمثل جرحاً غائراً في الجسد العباسي. وكان العباسيون يعلمون تمام العلم مدى طموح عبد الرحمن بن معاوية، وحلمه الكبير في إعادة ملك بني أمية في الأندلس والمغرب، لذا - بكل تأكيد - كانت هذه الرحلة التي قطعها عبد الرحمن للمغرب، هي رحلة قطعها على طريق تمزيق آمال العباسيين في لم أطراف الدولة الإسلامية من أدناها إلى أقصاها تحت رايتهم، وقد تأكد هذا حين سادت إسبانيا الإسلامية قبل قيام الإدارة الأموية الفوضى والاضطرابات، وقام النزاع بين المضرية واليمينية فيها، حتى إن إسبانيا الإسلامية ظلت أربعة أشهر بغير أمير، حتى اتفقوا على يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن عبيدة الفهري واليًا عليها، ومن خلال هذا الصراع لاحت لعبد الرحمن بن معاوية بارقة من الأمل، في أن يجدد دولة أجداده، وشرع في استغلال هذا الوضع لمصلحته. فلما عرض بدر مولى عبد الرحمن على اليمينية رغبة مولاه في دخول إسبانيا الإسلامية بشرط أن تناصره اليمينية رحبوا بذلك ترحيباً بالغاً. فبادر بركوب البحر، ودخل الأندلس في عام 138 هـ، وسمي بالداخل، وخاض عدة معارك ضد منافسيه حتى دانت له البلاد، وأنشأ الإمارة الأموية بإسبانيا الإسلامية. وبسجاح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولة الأندلس، أصبحت الدولة الإسلامية - ولأول مرة - منذ ظهور الإسلام، تتنازعها الرايات المتعددة، فهناك الخلافة الإسلامية في بغداد، وهناك دويلات المغرب، وها هي إمارة إسبانيا الإسلامية تبرر منفصلة عن الوحدة الإسلامية انفصالاً كاملاً، وازدعة بهذا أولى أسس الانقسام في العالم الإسلامي الذي سيشهد -

حين تتراخى قبضة الخلافة العباسية - عمليات انقسام مروعة في كل أرجاء الدولة الإسلامية بين مختلف الأهواء القومية والشعبية وحتى تلك التي تستند إلى دعاوى دينية كالدولة الفاطمية. وهكذا كان التحدي الصارخ من الجانب الأموي، وهذا العجز الاضطرابي من الجانب العباسي، هما حجر الزاوية في تشكيل أساس العلاقات بين الدولتين المسلمتين، وهكذا أيضاً وجدنا إهمال العباسيين هذا الذي حدث في البداية، إهمالاً قد يكون لبعد المسافة بين حاضرة الخلافة بغداد وحاضرة الأندلس - قرطبة - أو يكون لانشغال الخلافة العباسية بأمور داخلية فيها، كما حدث بالنسبة لثورة محمد النفس الزكية، وهكذا، ما أن انتهت هذه الأسباب إلى زوال، حتى زالت معها حالة الإهمال وتحولت إلى حالة الاهتمام بغرض القضاء على الإمارة بإسبانيا الإسلامية وسعى الخليفة المنصور حثيثاً لخلع عبد الرحمن، وإسقاطه وتحويل إسبانيا الإسلامية ولاية عباسية، ففي 146 هـ، سير المنصور، قائده العلاء بن مغيث عبر البحر من إفريقية، فنزل الأندلس، ولبس السواد، واجتمع إليه خلق كثير ودعا لأبي جعفر المنصور في باجة بغرب إسبانيا الإسلامية، وتطلع أكثر أهل إسبانيا الإسلامية إلى خلع عبد الرحمن، وعلى الأخص منهم، جماعات اليمينية التي عقدت العزم على التخلص من ابن معاوية ويسدو أن العلاء بن مغيث اختار الوقت المناسب للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية، فقد كانت الثورات تحتج إسبانيا الإسلامية في شماله وجنوبه، وكان الأمير مشغولاً وقتئذ بإخماد إحدى ثورات القيسية بمدينة طليطلة، وعلم وهو يقيم الحصار على هذه المدينة بثورة العلاء، وانضمام باقي الثورات إليه، فخرج لمواجهة، ولكن العلاء رحف إليه بجموع كثيفة وتحصن عبد الرحمن بقرمونة، ثم هاجمه العلاء، وتحول الموقف لصالح عبد الرحمن الذي انقض وجيشه على العلاء وأتباعه، فهزم العلاء ومزق جيشه، وقتل العلاء نفسه، وأمر عبد

الرحمن بإرسال رأسه مع أحد رجال قرطبة المسافرين للحج لكي يضعها أمام سرادق الخليفة العباسي، فلما نظر إليه المنصور ارتاع وقال: «إنا لله، عرضنا بهذا المسكين للقتل، والحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان. فمما لا شك فيه أن انصلاح بلاد إسبانيا الإسلامية عن الدولة العباسية قد أصابها في عضدها وأوهن قواها من ناحية قدرتها على السيطرة على أطرافها، فلما لم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد عمل على استمالة عبد الرحمن وأرسل إليه الرسل، وكثيراً ما كان إعجابه به، ويمقدريته، ويعزيمته التي جعلته - وهو شريد طريد - يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع في تلك البلاد البعيدة، وليس أدل على هذا من أن لقب «صقر قريش» الذي اشتهر به عبد الرحمن الداخل، أطلقه الخليفة المنصور نفسه على عبد الرحمن الداخل حين قال يوماً لبعض جلسائه: «أخبروني من صقر قريش من الملوك قالوا: ذلك أمير المؤمنين (يقصدونه هو) الذي راض الملوك، وسكن الزلازل وأباد الأعداء، وحسم الأدواء. قال: ما قلتم شيئاً. قالوا: فمعاوية. قال: لا. قالوا: فعبد الرحمن بن مروان. قال: ما قلتم شيئاً. قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟ قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصرّ الأمصار، وجنّد الأجناد، ودوّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه بحسن تدبيره، وشدة شكيمة، إن معاوية نهض بمركب حمل عليه عمر وعثمان وذلال له صعبه، وعبد الملك يبيعه أبرم عقدتها، وأمير المؤمنين، يطلب غيره، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، فأذل الجبابرة الثائرين، فقال الجميع: صدقت يا أمير المؤمنين».

استمراراً لسياسة العباسيين في الاهتمام بالقضاء على الدولة الأموية في إسبانيا الإسلامية باستخدام الثورات الداخلية فيها لتقويض الحكم الأموي، فقد شهدت خلافة المهدي العباسي عدة محاولات في هذا الصدد، خاصة، وأن المهدي قد استفاد من التجربة الأولى في عهد المنتصور، فلم تبعث في عهده الدولة العباسية داعية من دعائها هذه المرة، ولا جيشاً من المغرب العربي لغزو إسبانيا الإسلامية، وإنما اعتمد المهدي على الدهاء والدرس، ولأنه - أي المهدي - كان يحجم عن تجريد الجيوش لبعد الشقة، ووعورة الطريق، وإتباع الجند بالمسير في صحراء المغرب العربي، وكذلك قوة عبد الرحمن الذي فكر في انتزاع الشام من العباسيين لولا أن حالة بلاده الداخلية تطلبت العدول عن هذه الرغبة، فاكتمى كل من الحاكمين بمعاد له قوى الآخر، غير أن المهدي العباسي حاول أن يتفق مع بعض ثوار إسبانيا الإسلامية من المغرب المعارضين للوجود الأموي، وذلك على القيام بثلاث ثورات في آن واحد في داخل إسبانيا الإسلامية إمعاناً في تحقيق الاضطراب داخل كيان الإمارة الأموية في إسبانيا الإسلامية وقد اعتمد المهدي - لتحقيق ذلك على - عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي، وسمي بالصقلبي لأنه كان طويلاً أشقرًا، أزرق العينين، وقد ثار ابن الفهري بتدمير 162 هـ، وكان قد سار من تونس، وعبر البحر، وكتب إلى سليمان بن يقظان الأعرابي وإلى برشلونة بحشه على الدخول في أمره، ومحاربة عبد الرحمن الأموي، والدعاء إلى طاعة المهدي، فلم يجبه سليمان، فاغتاض عليه، وقصد بلده فيمن معه من البربر، العرب العاربة، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تدمير، وكانت مهمة سليمان بن يقظان الأعرابي الزحف إلى سرقسطة، وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهو حسين بن يحيى الأنصاري، أما الرماحس بن عبد العزيز الكتاني والي الجزيرة الخضراء، فكان عليه أن يعلن الثورة في نفس الوقت في جنوب

الأندلس حتى يعجز عبد الرحمن الداخل عن القضاء على الثورات جميعاً ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم، واختلفوا في توقيت حركاتهم، فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضي على كل ثورة على حدة، وقد أراد عبد الرحمن أن يبدأ بالأخطر والأقوى، فاختر أن يبدأ بعبد الرحمن الفهري - الصقلي - لأنه فيما يبدو المحرك وراء الآخرين، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وأحرق السفن تضييقاً عليه، حتى لا يتمكن من الهروب أو أن يفلت، ولكن الفهري - الداهية - هرب إلى جبل منيع بناحية بلنسية، ومن هناك أرسل إلى سليمان بن يقطان بـيرشلونة، ولكن سليمان لم يحبه، ولجأ عبد الرحمن الفهري عند رجل من البربر يقال له مشكار البربري، فاطمأن إليه الصقلي. ولكن عبد الرحمن الداخل، كان قد أعلن أن يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأس الفهري، فاغتاله مشكار طمعاً في المكافأة، وأتى برأسه في أواخر 162 هـ، 778 م.

يبدو من سياق الأحداث التاريخية في هذه الفترة أن المهدي كان يعلم بتفاصيل هذه الخطة التي دبرها للقضاء على الأمويين في الأندلس، ويتابعها أولاً بأول حتى أن أعوانه، وهو الرماحس بن عبد العزيز الكناني، حينما أرسل إليه عبد الرحمن الداخل وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش، وياغته بالهجرم على قصره في الجزيرة الخضراء، ففر الرماحس على مركب جازية البحر، حتى قدم الخليفة المهدي. وفي أواخر 163 هـ، ثار سليمان الأعرابي بسرقطة، وثار معه حسين ابن يحيى الأنصاري، فبعث إليهما ابن قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف، فقاتلتهما ثعلبة قتالاً عنيفاً، وعاد يومًا إلى مخيمه، فانتهز سليمان هذه الفرصة، وخرج عليه وأسرته ففترق عسكره، وعمل سليمان على الإفادة من أسيره، فترك على سرقطة صاحبه حسين بن يحيى الأنصاري، ومضى هو، وأسيره إلى إفرنجة حيث

قابل شارلمان وسلمه ثعلبة . ولم تفلح محاولات المهدي في تقويض حكم الأمويين بالشورات الداخلية وإخضاع الأندلس إلى الدولة العباسية، وهكذا فقد بذل العباسيون كل ما في جعبتهم من ناحية القضاء على الأمويين باستخدام هذه الفتز والاضطرابات الداخلية، ولكن العباسيين أيضاً، لم ينسوا جانباً هاماً من جوانب الصراع بينهم وبين الأمويين في الأندلس، ألا وهو استخدام العنصر الدولي في خدمة أغراض العباسيين لتحقيق الغلبة لهم في الصراع . وقامت لأول مرة تحالفات إسلامية - إفريقية، وتحالفات إسلامية - بيزنطية، ذلك أن الخليفة المنصور حينما لم يظفر بشيء من وراء سياسته في إثارة الاضطرابات الداخلية في طرق باب «بيين» ملك الإفرنجية، رغبة في مساعدته على عبد الرحمن الداخل، فأرسل إليه سفراء أقاموا في بلاطه عدة سنين، ثم عادوا إلى المنصور بصحبتهم سفراء الفرنجية، ثم عاد هؤلاء إلى «بيين» محملين بالهدايا الشرقية النفيسة، وقد نتج عن هذا أن عبد الرحمن الداخل لم يظهر عداؤه الحربي تجاه الخليفة العباسي، وقد أصابته رهبة من هذه الوفود العباسية - الفرنجية، وهجوم الفرنج على مدينة «أمر وارد» (التي تقع على الحدود بين إسبانيا الإسلامية وبلاد الفرنجية)، فاستطاع المنصور أن يحد من طموح عبد الرحمن الحربي، باستخدام الوسائل السياسية، التي سيتبعها أبناؤه من بعده أيضاً، في تعاملهم مع الإمارة الأندلسية، وقد وجدت هذه السياسة العباسية قبولاً لدى الفرنجية، فالعلاقات بين الأندلس والفرنجية تكاد تكون سلسلة من الحروب والغزوات رغم وجود جبال البرانس بينهما، فالفرنج ظلوا دائماً يتحرشون بإسبانيا الإسلامية، ويعملون على التدخل في شؤونها، ويحرضون نصارى الشمال على مهاجمتها وقد وضع الفرنج تجاه أعينهم سياسة هدفها إخراج العرب المسلمين من سبتمانيا، والحصول على مركز قوي تجاه إسبانيا الإسلامية، ذلك أن المسلمين رغم هزيمتهم في بلاد

الشهداء 114 هـ بقيت سبتمانيا بأيديهم مدة من الزمن، يشنون منها الغارات ضد أملاك الفرنجة الجنوبية ويعيشون فيها تخريباً، وقد أيقن «بيين» أن الوقت قد حان لغزو سبتمانيا في ظل اضطرابات الأندلس، وتحت تشجيع العباسيين ورعايتهم، وقد نجحت محاولاته المتكررة في انتزاع هذا الإقليم من المسلمين، في بداية لمأساة انتهاء الوجود الإسلامي في هذا الجزء، وبأيدي المسلمين أنفسهم، وبذلك أصبح «بيين» في مركز قوي، يستطيع منه إثارة الاضطرابات والتدخل في شمال الأندلس.

سار ملوك الدولة الكارولنجية (الفرنجة) بعد «بيين» على نفس السياسة التي سار عليها، واستغلوا كل فتنة أو ثورة في الأندلس، مثلما حدث مع سليمان الأعرابي وحسين الأنصاري، وبالتنسيق مع الخليفة المهدي العباسي الذي رأى أن تهاجم الفرنجة الأندلس، والثورات الداخلية تشتعل فيها، ويذكر ابن الأثير أن سليمان الأعرابي استدعى قارلة ملك الإفرنج، ووعدته بتسليم البلد وثعلبة إليه، فلما وصل إليه لم يصبح بيده غير ثعلبة، فأخذه، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم القداء فأهمله عبد الرحمن مدة، ثم وضع من طلبه من الفرنج، فأطلقوه. وقد التزم شارلمان بالاتفاق المعقود بينه وبين المهدي، ولهذا لم يتردد في السير إلى إسبانيا الإسلامية، فخرج على رأس جيوشه في 161 هـ، متجهاً نحو جبال البرتات (البرانس) عبر ممر رنسفالة، وهاجم بتبلونة، واستولى عليها، ثم واصل رحفه إلى سرقسطة، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها، إذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها، ولكن حسين بن يحيى الأنصاري أغلق أبوابها دونهما، وأصم أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان وطال وقوف شارلمان أمام المدينة عبثاً حتى ينس من فتحها، وكانت قد وصلته أنباء عن قيام اضطرابات وفتن في بلاده، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة، وقفل عائداً إلى بلاده، وقد أرغم سليمان على التراجع

معه لعجزه عن تحقيق ما وعد به من إدخاله المدينة. انسحب شارلمان بجيشه إلى غالة (فرنسا الحالية)، ولما بلغ بنبلونة سحب حاميتها الفرنجية، وهدم أسوار المدينة، ولكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل دونما مستاعب أو قلاقل، فأثار عليه قبائل البشكنس، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير، وهو يجتاز أحد شعاب رنسغالة (مر في جبال البيرتات)، وأمطروها وابلاً من السهام، والحجارة حتى قضوا على مؤخرة جيشه الكبير، قضاءً مبرماً، وقتل فيه عدد كبير من أعظم قواده، تذكر المصادر منهم صفية وأعظم قواده رولان، Roland وكان مصرعه أنشودة من شعر الملاحم الفرنسية، تعرف بأنشودة رولان، واضطر شارلمان إلى مهادنة عبد الرحمن الداخل ليتفرغ لمشاكله الداخلية، ويقول المقرئ في هذا: «وخاطب عبد الرحمن شارلمان ملك الإفرنج، وكان من طغاة الإفرنج، بعد أن تمرس به مدة، فأصابه صلب المكسر تام الرجولة، فمال معه (أي شارلمان) إلى المدارة، ودعاه إلى المصاهرة والسلم، فأجابته للسلم ولم تتم المصاهرة». وقد شعر شارلمان أن للأوضاع الداخلية في بلاده أثر فعال في عدم نجاح خططه ضد إسبانيا المسلمة، فعمد إلى توحيد بلاده تحت حكمه فبعد وفاة أخيه كارلمان 771 م ضم الأجزاء التي كانت تحت حكمه، واستطاع أن يحصل على غفران البابا وتأييده، وهكذا فشلت هذه المؤامرة الدولية التي دبرها المهدي بالاتفاق مع ثوار الأندلس، وشارلمان ولكن سلسلة المؤامرات العباسية لم تنته وحرصوا الفرنجة على أن يساعدوا عبد الله البننسي عم الحكم بن هشام الذي ثار مع بهلول بن مروان في سرقطة 181 هـ وقد قابل عبد الله شارلمان في العاصمة «أكس شاييل» ولم يترك شارلمان هذه الفرصة تمر دون أن يستهزأ وجهاز حملة بقيادة ابن لويس فاستولى على جيرونة، ويبدو أن الفرنجة آثروا الرجوع إلى بلادهم خوفاً من تكرار مأساة مر رنسغالة، بعد أن استطاع الحكم ردهم. ومثلما

شهدت الساحة الدولية محوراً للتآلف بين قطبي المسيحية والإسلام في بلاد الفرنجة وبغداد، شهدت محوراً آخر رداً على هذا المحور بين قطبي المسيحية والإسلام في القسطنطينية، وقرطبة فكما استمرت العلاقات السيئة بين قرطبة والدولة العباسية، استمرت كذلك بين قرطبة والأندلس، وكانت القوتان الإسلاميتان العباسية والأندلسية عملاقان فكي الكماشة تحولان أن تطبقا على الدولتين المسيحية الفرنجة وبيزنطة، وتحاول كل منهما أن تثبت أنها هي قائدة الجهاد في سبيل الإسلام، ولكن المؤسف أنهما لم تتعاونوا في هذه الجهود بسبب التنافر بينهما وتضارب الأهواء. وكان السبب في قيام محور إسبانيا الإسلامية - البيزنطي هو رغبة العباسيين في إعادة الأندلس إلى حكمهم خالفاً عن سالف منذ توليهم الخلافة حتى أن «المعتصم عزم على المسير إلى أقصى المغرب، ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء وهكذا حينما تبرأ ثيوفيل عشر بيزنطة، وهو الذي عاصر الأمير عبد الرحمن الأوسط في إسبانيا الإسلامية، كان المعتصم قد اعتلى عرش الدولة الإسلامية، وقد شاطر عبد الرحمن الثاني ثيوفيل عداؤه وكرهه للعباسيين، أما ثيوفيل فقد كانت وراءه عدة عوامل تدفعه لمحاولة عقد هذا التحالف مع إسبانيا الإسلامية، فهزيمته في عمورية، وتخريبها من قبل المعتصم، وتعدد هزائمه المتوالية، وخطر الأغالبة وعرب كريت، كل هذا بالإضافة إلى أن صقلية، أصبحت في طريقها لأن تصبح تابعة للأغالبة أتباع العباسيين، ويبدو أن ثيوفيل، وجد نفسه، مضطراً للبحث عن خلفاء يقوي بهم مركزه المنهار، وتصور أنه سوف يحصل على هذه المعاونة من أمراء إسبانيا الإسلامية أعداء العباسيين، وخاصة أن سفاراته إلى دول أوروبا قد فشلت في الحصول على أية مساعدة أو فائدة.

استقبلت إسبانيا الإسلامية أول سفير من ثيوفيل ويدعى «قراطيوس»
في عهد عبد الرحمن الثالث، وكان هذا السفير يجيد العربية، (في 225 هـ)،
وقد حاول ثيوفيل أيضاً جذب أمير الأندلس وتحريضه على استعادة أملاك
أجداده في الشام، ولم ينس أن يطالب لنفسه بجزيرة كريت التي دخلها
البرطيون بقيادة أبي حفص الأندلسي، وإظهاراً لكرهه وإمعاناً في احتقاره
للمأمون والمعتصم، فقد أنحى عليهما باللائمة لتصرفاتهما تجاه الأمويين
والبيزنطيين على السواء. ولم يقدم ثيوفيل في هذه الرسالة أي تعهد، ولكنه
ظن أن عبد الرحمن سوف يسارع إلى محاربة الأغلبية، وبذلك يكون هو
المنتصر الوحيد، فهو لن يتكلف جهداً في الحرب التي تقع بين المسلمين، ولا
يهم في النهاية من الذي سينتصر، فأياً كانت النتيجة فهي لصالحه، وقد أقام
المبعوث البيزنطي عدة أيام في قرطبة، وودع بكل مظاهر العظمة والاحترام،
مصحوباً بمبعوثين من أصدقاء الأمير الأموي، وهما يحيى الغزالي وآخر اسمه
يحيى أيضاً، وكلفوا بإعطاء الإمبراطور جواب سيدهما، وقد استقبل الرسولان
في القسطنطينية استقبالاً حافلاً، وقد برز فيهما يحيى الغزالي بدعاباته الحلوة،
ودعاه الإمبراطور إلى مائدته، وعادا بعد أن بقيا مدة دون أن يعقدا أي اتفاق،
وقد كان ثيوفيل يسعى فيما يبدو إلى تحديد الروابط التي كانت بين أجداد عبد
الرحمن في الشام، وأسلاف ثيوفيل، وقد حاول ثيوفيل أن يصور لعبد
الرحمن، أن المأمون والمعتصم، يتبعان سياسة ضالة وجائزة ضد المسلمين،
وأن واجب عبد الرحمن، هو إنقاذ هؤلاء من ظلم العباسيين. وقد تخلص
عبد الرحمن من أي مسئولية في هذا الصدد بكل لباقة، وهو التصرف الذي
يؤكد أنه مهما قامت علاقات وروابط قوية بين أي من الجانبين المسلمين في
هذا الصراع وبين آخر مسيحي، لا يمكن أن تصل إلى حد الوقوف صفاً واحداً
مع أعداء المسلمين ضد المسلمين فلا مانع من أن يهدد الفرلحة الأندلس برضا

العباسيين، ولا مانع من أن يشعر الخليفة العباسي أن بيزنطة صديقة للأندلس، ولكن أن يقف أحدهما لقتال الآخر وجهًا لوجه تحت راية الأعداء، فهذا لم يحدث في هذا الصراع الذي شهد تلك الحقبة من العصر العباسي الأول، وقد شهد عصر الرشيد بالذات فترة ركود في التعامل مع الأندلس، فقد كان للرشيد سياسته الخاصة في التعامل مع أطراف الدولة الثائرة، ونراه يؤثر أن يوجه جهوده نحو الجناح الشرقي للدولة العباسية، وأن يترك الجناح الغربي الكثير الاضطرابات تحت أتباع للدولة العباسية يتمتعون بحكم مستقل، وهو ما حدث بالنسبة للأغالبة⁽¹⁾. ترتب على كل هذه الصعوبات الكثيرة نتيجة طبيعية: هي أن عبد الرحمن لم يستطع أن يكرس الكثير من مجهوده للجهاد على حدود بلاده إذ أن الفتن السياسية التي أثارها رعاياه والتي كان عليه أن يجمعها ومراقبة مثيرها، جعلته يقف موقفًا سلبيًا إزاء جيرانه من النصارى. وكان ضعفه هذا سببًا في تشجيعهم على متابعة غاراتهم على ممتلكاته شيئًا فشيئًا. وكان أشد الأخطار التي تحيق بعبد الرحمن خاصة في الجزء الأول من ولايته هو خطر اشتوريش وملكها فرويلة الأول (Fruola) (757 - 768 م) - أفضع ملوك اشتوريش حسب قول الروايات العربية - ابن الملك ألفونس الأول الذي سبق الكلام عن نشاطه العسكري والسياسي (739 - 757 م) والتوسع الإقليمي الذي أحرزه في مناطق الشمال - الغربي من أرض الجزيرة والذي مات بعد استيلاء عبد الرحمن الداخل على قرطبة بسنة واحدة (757 م). وتقول بعض الروايات (اللاتينية) أن فرويلة أحرز عدة انتصارات على جيوش قرطبة، وخاصة في منطقة كورونيا Coruna (في الزاوية الشمالية الغربية على المحيط) من غاليسيا. وربما راح آلاف من المسلمين ضحايا لهذه الواقعة - التي لا يقول عنها المؤرخون المسلمون شيئًا.

(1) د. نايف عبيد جابر السهيل - المرجع السابق، ص 175.

كما أنه ربما أسر أثناء الملحمة أحد أبناء عبد الرحمن وهو الأمير الشاب عمر الذي قتل بأمر الملك اشتوريش . ولقد قام عبد الرحمن بهجوم مضاد - لا تذكر الروايات اللاتينية شيئاً عنه - سنة 150 هـ (767 م) وذلك أنه سير مولاة بداراً على رأس حملة ضد منطقة ألبه (ALAVA) وانتهت بالنجاح إذ قبل أهل المنطقة ما فرضه القائد الأموي عليهم من إعطاء الجزية ودفع الرهائن. هذه المعلومات المقتضبة عن حملة 150 هـ ربما اتفقت مع إحدى الوثائق التي أوردها بعض الكتاب العرب (نقلاً عن الرازي أوثق مصادر تاريخ الإمارة الأموية). موضوع هذه الوثيقة هو الهدنة التي عقدها لمدة 5 سنوات ابتداء من صفر 142 هـ (يونية 759 م): «الأمير الأكرم الملك العظيم» عبد الرحمن إلى بطارقة وrehبان وبقية أهل قشتالة ونواحيها. ويعدد النص الشروط التي كان على النصاري التزامها، وهي: دفع عشرة آلاف أوقية من الذهب سنوياً وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف حصان، ومثلها من البغال، هذا إلى جانب ألف درع وألف بيضة وألف رمح من الخشب الصلب. والحقيقة أنه من الصعب الحكم على قيمة هذه المعاهدة غير المتظرة في هذا الوقت وربما على أصالتها نظراً لشروطها القاسية. كما أنه لا يمكن معرفة ماذا يقصد بقشتالة في هذه الفترة؟ هل كان يقصد بها المنطقة الواقعة على حدود مملكة اشتوريش والتي تشبه ثغراً دفاعياً جنوب سلسلة جبال الكانتابر في منطقة ماية AMAYA أو كان يقصد بها ما يشبه قشتالة القديمة، كما ستكون فيما بعد. أما عن عهد خلفاء فرويلة الأولى الثلاثة وهم أورليو (Aurelio) (768 - 774م) وسيلو SILO (774 - 383 م) ومورقات (Mauregato) الذي استولى على الملك بمساعدة المسلمين (783 - 789 م)، فالظاهر أنه عهد سلام. وما يمكن أن يقال هو أن الروايات العربية واللاتينية لا تذكر أية ملاحم بين القوات الأموية والقوات الأشتوريشية خلال فترة العشرين عاماً هذه. ولا بد أن هذه

الفترة تتفق مع هدنة اختيارية أو أنها كانت نتيجة مباحثات بين أمير قرطبة وملك أشتوريش في ظروف لم تعرف حتى الآن.

حملة شربان (161 هـ / 778 م)،

هذا هو هيكل السياسة الداخلية التي وضع عبد الرحمن أساسها، فهل كانت لعبد الرحمن سياسة خارجية واضحة المعالم؟ نقصد بالسياسة الخارجية هنا موقفه من العناصر والقوى التي تقيم خارج حدود الإمارة الأموية في إسبانيا الإسلامية، وموقفه مثلاً من الإمارات المسيحية التي تحف بالمسلمين من الشمال، وموقفه منها في الحقيقة كانت تملية الظروف الداخلية التي تحدثنا عنها، فقد حالت هذه الظروف بينه وبين تسخير وقته كله للجهاد فوق موقفاً مسلماً من جيرانه، وقد شجعهم هذا على الإغارة على الحدود الإسلامية، خصوصاً الملك ألفونسو الأول ملك أشتوريش الذي شجعت هجرات البربر نحو الجنوب وإخلائهم مناطق كثيرة في شمال البلاد. وإذا كان ألفونسو هذا مات 757 م بعد استيلاء عبد الرحمن على قرطبة بنحو سنة فقد قام ابنه بحملات ناجحة على الحدود وقتل جماعات من المسلمين. والمؤرخ الرازي أوثق من كتب عن تاريخ الأمويين في الأندلس يشير إلى اتفاقية هدنة مدتها خمس سنوات عقدت 759 م بين «الأمير الأكرم المعظم عبد الرحمن وبين البطارقة والرهبان وأهل قشتالة». ويبدو أن ملوك أشتوريش في المدة من 768 حتى 789 م لم يقوموا بأعمال عدائية ضد إسبانيا الإسلامية. والمصادر اللاتينية والعربية لا تتحدث عن اشتباك بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة التي استمرت 21 سنة الأمر الذي يدل على اتفاق بين هذه المملكة المسيحية وبين الإمارة الأموية. أما عن موقف الفرنجة من الإمارة الأموية في عهد عبد الرحمن فيبدو أنهم لم يقنعوا بالاستيلاء على منطقة سبتمانيا ومدينة نربونة إنما أرادوا أن تمتد غاراتهم إلى بلاد الأندلس ذاتها.

يظهر هذا واضحًا من حملة شرلمان المعروفة التي تقدمت لغزو البلاد عام 778 م، (أي قبل وفاة الأمير بعشر سنوات). ويرجع السبب في هذا التدخل الفرنجي إلى أن بعض جماعات العرب الذين كانوا قد استقروا في أقصى الشمال الغربي في حوض نهر الأيبرو الذي يسمى في المصطلح الإسلامي «الشعر الأعلى» ساءم قيام الدولة الأموية ومحاولة عبد الرحمن إخضاع أهل البلاد جميعها لسلطانه فبدأوا بالثورة عليه في سرقسطة. ولما أحسوا أنه سار إليهم لم يترددوا في الاستنجاد بأعداء المسلمين فذهب وفد منهم ليقابل شرلمان في ألمانيا وزيّنوا له دخول الأندلس والاستيلاء على الشعر الأعلى (حاسبين أن هذا الاستنجاد لا يزيد على ما كانوا يفعلونه هم في البادية من استنجادهم بفريق على فريق). وقد أقبل شرلمان ودخل شبه الجزيرة متجهًا نحو سرقسطة وحاصرها بالفعل ولكن أهلها من المسلمين تنبهوا فجأة إلى خطورة فعلة رؤسائهم ورفضوا فتح الأبواب واشتد الحصار، ولولا أن ظروفًا خارجية اضطرت شرلمان إلى الانسحاب من الأندلس قبل الاستيلاء على سرقسطة لأصبح مصير الشعر الأعلى في كفة الميزان. (ذلك أن الزعيم الجرمانى فيدوكند عاد إلى الثورة في سكسونيا) فاضطر شرلمان إلى أن ينسحب، فنجت البلاد من الخطر وفي أثناء انسحاب شرلمان مسرعًا احترقت قطع جيشه الممرات الغربية لجبال البرانس، وهي المعروفة بممرات رونشفال واتسعت المسافات بين أجزاء الجيش وتأخرت المؤخرة فهاجمتها من شعاب الجبال الباسك فقضت عليها وقتلت قائدها رولاند فنشأت عن ذلك الملعمة المعروفة في الأدب العالمي باسم ملحمة رولاند. (وكانت هذه الحملة الشرلمانية أكبر خطر تهدد دولة عبد الرحمن ونجت منها البلاد لظروف خارجية عن إرادتها).

ظهر العداء واضحاً بين العباسيين وبين الإمارة الأموية في الأندلس، وحاول العباسيون مراراً أن يتدخلوا في البلاد ويستعدونها لسلطانهم فلم يوقفوا، وقد اضطر هذا العداء العنيف العباسيين فيما بعد إلى محالفة شرلمان عبد المسلمين ومراسلته كيذا في الأمويين وتهديداً لكيانهم. ولم يكن اهتمام عبد الرحمن شديداً بما يجري عبر المضيق من تطورات فقد كانت شئون البلاد تشغل عليه وقته ولا تدع له مجالاً للتطلع إلى بلاد المغرب⁽¹⁾. يمكن اعتبار هذه الحملة كرد الفعل الذي وجهه الفرنج بالأرض الكبيرة ضد الحملات التي كان يقوم بها العرب فيما وراء البرانس والتي نتذكر منها حملة عبد الرحمن الغافقي التي انتهت بهزيمة المسلمين في وقعة بلاط الشهداء سنة 114 هـ التي تسمى في التاريخ الأوروبي بموقعة بواتييه أو تور وبطلها شارل مارتل. عن هذه الحملة بقي الجزء الأخير منها، وهو الخاص بكارثة الرونسفو التي لحقت بجيش شرلمان، ماثلاً في الأذهان إذ خلدته أنشودة العصور الوسطى الشهيرة المسماة بأنشودة رولان التي ألّفت في القرن الحادي عشر الميلادي. ومما يدعو إلى الأسف أن المعلومات التي غملكها عن الظروف التي تم فيها إبادة ساقاة (مؤخرة) الجيش الفرنجي وعن طريق الذهاب للحملة وطريق العودة في وادي الإبرة أو عن الدوافع الحقيقية التي دفعت شرلمان إلى القيام بها إن هي إلا معلومات ضئيلة. وهنا نجد أن المصادر الفرنجية نفسها ليست بأكثر دقة أو معلومات من المصادر العربية. وعلى ذلك فمن الطبيعي أن تكون النتائج التي يصل إليها الباحثون ليست واحدة.

نبدأ بالكلام عن طبيعة الإقليم الذي تمت فيه هذه الحوادث إذ أن جغرافية المنطقة كانت من العوامل الحاسمة في سير هذه الحوادث. فالمنطقة

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 94.

الفاصلة بين شبه جزيرة إيبيريا وفرنسا وهي منطقة جبال البرانس الوعرة التي تتخللها مضائق صعبة. ومدينة سرقسطة على نهر الإبرة هي مركز منطقة خصبة غنية قريبة من الجهات التي تسكنها قبائل الباسك ثم الحاميات الفرنجية في سبستانيا وهي بذلك مدينة غنية ومركز عسكري ممتاز. وهي أيضًا مثل برشلونة وإلى حد ما مثل بلنسية، تبعد عن قرطبة، تسمح لمن يحكمها أن يكون شبه مستقل عن الحكومة المركزية. ومنذ بداية الغزوة العربية استقبل وادي الإبرة أعدادًا كبيرة من العرب وبدأ الإسلام ينتشر هناك، والظاهر أن ولاية سرقسطة أحسوا ببعدهم هذا عن العاصمة وأنهم يتمتعون بحرية العمل بعيدًا عن سيطرة الحكومة المركزية بقرطبة فأظهروا ذلك كلما سنحت لهم الفرص. ولم يكن من الصعب أن نجد - من بين هؤلاء الولاة المغامرين الذين لم يكونوا يعملون إلا لمصلحتهم الشخصية دون مراعاة لمصلحة الدولة الإسلامية أو حركة الإسلام - من كان يرى أن أطماعه الأنانية ربما تحققت عن طريق التلويح لشرلمان بمزايا فتح إسبانيا الشمالية وسهولة ذلك. هذا ولو أن فكرة فتح شمال إسبانيا كان يعتبر صحيحًا من الناحية العسكرية، وذلك لتأمين حدود مملكته الجنوبية ضمن غارات المسلمين، ولو أن خطرهم الجدي كان قد زال منذ منتصف القرن الثامن الميلادي، وذلك باستيلاء بيان القصير والد شرلمان على مدينة أربونة، كما أن المصادر التي تلت موت بيان 768 م لا تذكر أي نشاط عدائي بين المسلمين والفرنج من أي جهة من جهات البرانس الشرقية، كما أن شارل كان لديه عقب موت والده من المشاكل ما يشغله عن الاهتمام بتأمين ممتلكاته المتاخمة لإسبانيا.

إلا أنه بعد أن يقوم بفتوحاته في لومبارديا وساكس وبافاريا وبلاد الآفار حتى الدانوب التي ضمها إلى إمبراطوريته، بدأ يحيط هذه الإمبراطورية بعدد من الثغور لتأمينها ضد أعدائها في هذا الحين كان يمكنه التفكير في ضم

إسبانيا القوطية إلى دولته وطرده المسلمين منها، ولو تم له هذا لكان انتصاراً سياسياً ودينياً في نفس الوقت. ومن المرجح أنه فكر في هذا المشروع إلا أن تصرفه بعد الفشل الذي صادفه يظهر لنا أنه عدل سريعاً عن تحقيق هذا الهدف. والمقري يحفظ فصلاً غريباً ربما اقتبسه عن ابن حيان وفيه يقول: «وخطب عبد الرحمن قارله ملك الإفرنج وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تحرش به مدة فأصابه صلب المكر تام الرجولية فمال معه إلى الإدارة ودعاه إلى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة. ويمكن الشك في أصالة النص ولكن ليس من المعقول أن يكون مصنوعاً كله. والحقيقة أنه ليس من الصعب أن تصور تصاهر العائلة الكارولنجية وأسرة الأمويين بقرطبة، أما عن الهدنة فهي تتفق مع الحقيقة التاريخية، إذ أن حملة 778 م لم تتبعها حملات أخرى فيما وراء البرانس حتى أخذ برشلونة 801 وتكوين ما يسمى بالثغر الإسباني (Marca Hispanica) ما بين نربونة وبرشلونة. ويمكن الاعتراض على هذه الملاحظة بأنه بعد ذلك بقليل (في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي) عقد شارلمان أواصر الصداقة مع هارون الرشيد لكي يضايق الأمويين بالأندلس، ولكن هذا غير موثوق به تماماً، فالمصادر العربية تقول أن شارلمان لم يأنف من مفاوضة الحكم الأول حفيد عبد الرحمن بينما نرى المصادر الإفرنجية لقلب الأوضاع. وقبل أن نتكلم عن الحملة نفسها يحسن أن نقول كلمة عن الظروف التي تمت فيها المفاوضات بين شارلمان والأمير العربي الذي استدعاه. هذا الرجل هو سليمان بن يقطان بن العربي (أو ابن الأعرابي حسب رواية أخبار مجموعة) من قبيلة كلب. ولقد ولي سرقسطة في ظروف غامضة وكان قبل ذلك بقليل (160 إلى 161 هـ 776 أو 777) قد عمل مع أحد المشاغبين الذين حضروا من إفريقية إلى الأندلس، هذا الأخير هو عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلي (السقلابي في أخبار مجموعة وسمي بذلك لطوله وررقته

وشقوته . وكان الخليفة العباسي محمد الهادي قد أرسله للقيام بمهمة أشبه بالمهمة التي كلف أبو جعفر المنصور 146 هـ (763 م) العلاء بن مغيث أي القيام بتكوين حزب مناصر للعباسيين والعمل على قلب النظام الأموي في شبه الجزيرة بمساعدة الذين يعطفون على الحركة ولا سيما البربر . نزل الصقلي بساحل تدمير (مرسية) وكاتب ابن العربي الذي كان ببرشلونة في ذلك الحين . ولكن عندما أظهر الصقلي أنه يدعو لبني العباس رفض ابن العربي أن يجيبه أو أن يربط مصيره بمصيره . وانتهى الأمر بينهما إلى الحرب فهزمه سليمان واضطر عبد الرحمن بن حبيب إلى الهجوم على جهات بلنسية حيث اتبعه جيش أموي على رأسه عبد الرحمن وأحرق سفنه فقصده الصقلي جبلاً هناك فبذل الأموي ألف دينار لما أتاه برأسه فترع إلى الفهري رجل من البربر فاغتناله 163 هـ / 778 - 779 م . هنا يلاحظ الأستاذ ليفي بروفنسال أن المصادر العربية متفقة بالنسبة لما قام به عبد الرحمن الصقلي في المدة القصيرة التي وجد بها بالأندلس من أجل تنفيذ المهمة التي أراد بها لحساب الخليفة ببغداد ، ولكن دوري يقول (المصادر غير معروفة) أن هذا الشخص ذهب في 777 م إلى مقابلة شارلمان ومعه سليمان بن يقظان بن العربي وأبو الأسود في يوسف الفهري الذي كان قد سجنه عبد الرحمن الداخل والذي تمكن من الهرب بعد أن تظاهر بالعمى مدة طويلة حتى خفت الحراسة عنه ، وأن هؤلاء المغامرين الثلاثة اقترحوا على شارلمان تحالفاً هجوماً ضد أمير الأندلس . ولكن الحقيقة مخالفة تماماً كما تعرضها المصادر الموثوق بها كرواية «أخبار مجموعة» المقتضبة ورواية ابن الأثير رغم تواريخه الخاطئة التي ينقلها عن مصدر إسباني .

من هذه المصادر يتضح أن ابن العربي عاد إلى سرقسطة بعد أن قطع علاقته بالداعية العباسي وهناك ثار ومعه أحد المغامرين العرب ، وهو الحسين

ابن يحيى الأنصاري ضد أمير قرطبة، ولكن هذا أرسل جيشًا بقيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي فحاصر المدينة وضيق عليها ولكن ثعلبة سيؤخذ أسيرًا ويتفرق جيشه بعد أيام من الحصار، وذلك بعد هجوم مفاجئ من حمامية المدينة. هذا الأسير سيفتح آفاقًا جديدة أمام ابن العربي الذي سيتترك المدينة إلى شريكه الحسين بن يحيى قائمًا برحلة طويلة إلى ساكس لمقابلة قارله (شارل) الذي كان موجودًا هناك قفي مدينة بادربورن وهناك سلم أسيره ثعلبة إلى شارل طالبًا منه أن يقوم بحملة ضد شمال إسبانيا. وهناك احتمال في أن يكون ابن العربي قد وصل إلى بادربورن في صحبة أمير عربي آخر مستقل اسمه «أبو ثور» الذي كان يملك وشقه ذلك ما يمكن استخلاصه من بعض المصادر الإنجليزية التي تقول أنه في 778 م وصلت إلى الملك الفرنجي رهائن من أبي ثور أمير وشقه ومن ابن العربي أمير برشلونة وجرنده. في هذه الظروف يسير شارلمان على رأس جيوشه في ربيع 778 م في طريقه إلى البرانس التي يعبرها عند برت شيزروا (الإدرسي) ثم يتجه إلى بنبلونة ويتقبل خضوع الباسك (البشقني) بها. ومن هناك وعن طريق وشقة يتجه إلى سرقسطة التي وعده ابن العربي بفتح أبوابها له. ولكن الحسين بن يحيى الذي كن يحكم المدينة ذلك الوقت، كما رأينا، والذي طاب له أن يظل حاكمًا عليها لم يعد ينظر إلى المسألة كما نظر لها ابن العربي، فيغلق أبواب المدينة، ويضطر شارلمان إلى ضرب الحصار عليها ولكن قاتله أهلها ودفعوه أشد الدفع. وطال الحصار على غير ما يشتهي الإفرنج ولكن ابن العربي يُطمئن شارلمان على أمل أن تفتح المدينة أبوابها عندما يشتد عليها الحصار. في هذا الوقت وردت إلى شارل أنباء سيئة من ألمانيا: فالشورة قامت في ساكس، وكان ذلك كافيًا لأن يرفع الحصار عائداً بالجيش إلى بلاده، ورجع الجيش الإفرنجي عن طريق بنبلونة، وانتقم من أهلها وحطم أسوارها. ولم يكن أمام ابن العربي إلا الانسحاب مع

جيش شارلمان الذي احتفظ به أسيراً وجعله مسئولاً عن الفشل أمام سرقسطة. ولكن في نفس اليوم الذي خرج فيه الجيش من بنبلونة أو في اليوم التالي هوجم في الرونسفو. ويتكلم المؤرخ أجينار في تاريخه عن حياة شارلمان عن هذا الحادث فيقول: «لما كان جيشه سائراً في صفوف طويلة إذ أن طبيعة الشعاب تتطلب ذلك قام الباسك الذين كانوا يكمنون - إذ أن الغابات الكثيفة في هذا المكان تساعد على عمل الكمائن - بالانقضاض من أعالي الجبال ملقن في الأودية بجموع مؤخرة الجيش التي كانت تغطي مسيرته وهاجموها بعنف حتى قضوا على كل الرجال، واستولوا على الأتقال، ثم انتشروا بسرعة غريبة عندما حل الليل. وساعد الباسك خفة تسليحهم ثم صعوبة الأرض، بينما كان الفرنج مُجهدين بأسلحتهم الثقيلة ثم بموقفهم الصعب في بطون الأودية. في هذا القتال هلك عدد من كبار رجال شارلمان منهم: صاحب طعام القصر (أجيهار) ومحافظ القصر أنسلم ثم رولاند صاحب ثغر بريطانيا وكثير غيرهم. هذه الهزيمة لم يثار لها في الحال إذ أن الأعداء تفرقوا بعد أن ارتكبوا فعلتهم، ولم يعلم إلى أي مكان ذهبوا. تلك هي القصة التقليدية كما يوردها أجينار، وهي تهدف إلى التقليل من الهزيمة على قدر الإمكان. ومؤلف حياة شارلمان هو المصدر الوحيد الذي يذكر أسماء الكبراء الثلاثة الذين قتلوا إلا أنه لم يذكر مكان الواقعة. والمصادر الفرنجية تحدد أن الذين قاموا بالهجوم على الجيش الفرنجي هم قبائل الباسك إلا أنه من المحتمل أن يكون قد انضم إلى هؤلاء جماعات من المسلمين. تلك الجماعات لم تكن تهدف إلى سلب جيش شارلمان فقط، بل وتحرير ابن العربي أيضاً. وهناك إشارة في ابن الأثير تبغث على الظن أن ابنين من أبناء ابن العربي هما مطروح وعيشون اشتركا في هجوم الرونسفو وأنهما أنقذا أباهما وعادا به إلى سرقسطة. وفي ذلك يقول (ابن الأثير ج 6 ص 5): وفيهما (164 هـ) أخرج

سليمان بن يقطان الكلبي قارله ملك الإفرنج إلى بلاد المسلمين من الأندلس ولقبه بالطريق وسار معه إلى سرقسطة، فسبقه إليها الحسين بن يحيى الأنصاري من ولد سعد بن عبادة، وامتنع بها، فاتهم قارله ملك الإفرنج سليمان فقبض عليه وأخذه معه إلى بلاده. فلما أبعد من بلاد المسلمين واطمأن هجم عليه مطروح وعيشون أبناء سليمان في أصحابهما فاستنقذوا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة، ودخلوا مع الحسين ووافقوا على خلاف عبد الرحمن.

وظلت المدينة عدة سنوات على موقفها المعادي لعبد الرحمن الأموي قبل أن تخضع، وذلك أن قائد عبد الرحمن الداخل وهو ثعلبة بن عبيد الذي سلمه ابن العربي إلى شارلمان استرجع حريته بعد مفاوضات بين أمير قرطبة وملك الفرنج. وربما كانت هذه بداية المفاوضات التي سبق الإشارة إليها حسب رواية نفح الطيب، والتي تنسب إلى ابن حيان. أما ابن العربي فإنه بعد قليل: قتله حليفه السابق الحسين بن يحيى الأنصاري الذي تغلب بعده في سرقسطة والذي سيضطر تحت ضغط حصار عبد الرحمن الداخل 164 هـ/ 781 م إلى الخضوع ومن المحتمل أن يكون الأموي قد انتهز فرصة وجوده في إراجون لكي يقوم بغارة في اتجاه البرانس الشرقية والروسيون، وربما وصل إلى قلهره، ولو أن أسماء المدن حسب ما توردتها الروايات العربية مشوه للغاية ومن المتعذر التحقق منها. وعلى ذلك فرمما كان مقصد عبد الرحمن هو منطقة سرداني وجهات ببلونة. وعلى أية حال لم يكن خضوع سرقسطة إلا خضوعاً عابراً فالحسين بن يحيى، رفع راية العصيان بعد عدة أشهر. وفي صيف 166 هـ/ 782 م أتى أحد قواد عبد الرحمن لمحاصرة المدينة ولم يلبث الأمير أن أتى بنفسه فضيق عليها الخناق ونصب حولها المنجنيقات فاضطرت إلى التسليم فأخذ الحسين وقطع يديه ورجليه قبل أن يقتله، كما طرد أهل المدينة منها لمدة

معينة ثم أعادهم. وتدل الظواهر على أن فشل شارلمان 778 م بسبب له مرارة شديدة، كما علمه أن تحالفه مع بعض الأمراء المسلمين بشمال إسبانيا لم يكن يستند إلى أساس مستين، وأنه ينبغي أن يترك جانباً فكرة الاستيلاء على المدن التي كان يطمح في أخذها فيما وراء البرانس. فلم يعد همه هو محاربة المسلمين في شمال الجزيرة إنما الدفاع عن إمبراطوريته على طول جبال البرانس. ولهذا السبب قام في نفس السنة بتكوين مملكة قطانيا داخل إمبراطوريته لغرض مراقبة نشاط أمراء المسلمين هناك ومحاولة رد هجماتهم إذا ما فكروا في ذلك. هذه المملكة الجديدة التي كانت تعادل مناطق بروج وبورد وأوك ونربونة أعطاها شارل لابنه لويس الثاني الذي سياركة البابا كملك لهذه المملكة 781م. ومن هذه المملكة التي ستعيش حتى 986 م ستقف ولايتا جاسكوني وسبتجانيا موقفاً حازماً إزاء المسلمين. ولكن كما حدث في شمال شبه الجزيرة الغربي لن تكون هناك حدود دقيقة واضحة بين الممتلكات المسيحية والممتلكات الإسلامية. ففي نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين نجد بين نهر الإبرة، وجبال البرانس مانعة بين الفرنج والمسلمين فهي متبادلة بينهم حسب الظروف. في هذه المنطقة المتنازع عليها بين الطرفين سيلاقي عبد الرحمن الداخل هزيمة قبل موته بثلاث سنوات، ولن يستطيع أن يجد لها حلاً. وذلك أن أهل جرنندة سيسلمون مدينتهم إلى ممثلي السلطة الفرنجية 785 م. والمؤرخون العرب لا يقولون شيئاً عن هذا الحادث ولكن هناك رواية محلية ترجع الفضل في هذا - وذلك أمر غير محتمل - إلى شارلمان. وهذا الجيب الفرنجي في داخل الأراضي الإسلامية كان ينذر بسقوط منطقة برشلونة كلها على أيدي الإفرنج وتكوين الثغر الإسباني (Marea hispanica)، كما سيحدث فيما بعد⁽¹⁾.

(1) د. سعد عبد الحميد - المرجع السابق ص 205.

السياسة الخارجية لخلفاء عبد الرحمن:

رأينا كيف كان انشغال عبد الرحمن الأول بتوطيد دعائم الإمارة والقضاء على المعارضين لسياسته دفعه إلى مسلك معين في علاقته بالإمارات المسيحية في شمال البلاد أو مملكة الفرنجة، دفعته إلى مهادنة هذه القوى بقدر ما يستطيع حتى تتحقق أغراضه وتنجح سياسته في الداخل. ونستطيع في الحقيقة أن نضع مبدأً يساعدنا على فهم هذه العلاقات الخارجية إذ يلاحظ أن هذه العلاقات الخارجية مرتبطة بالأحوال الداخلية في البلاد أشد الارتباط، التوسع العربي يقترن بالوحدة القومية، كلما تمت هذه الوحدة تحقق التوسع ونجح، كما أن الانصراف إلى الجهاد يرتبط باستتباب الأحوال الداخلية في إسبانيا الإسلامية على الخصوص. على هذا الأساس سنجد أن العلاقات الخارجية في الفترة الأولى من تاريخ الإمارة التي شملت عهد هشام والحكم وعبد الرحمن الثاني تختلف عنها في الفترة الثانية فترة الأمراء الضعاف وتفرق الوحدة القومية. وقد رأينا العهد الأول أميناً على تراث عبد الرحمن، حقق الوحدة القومية وجابه المشاكل الداخلية بشجاعة والتمس لها الحلول، لذا كان العهد الأول هو عهد الدعوة إلى الجهاد ومعاودة الجهود التي توقفت بانقضاء عصر الغافقي وأمثاله، وسنرى كيف كانت سياسة الجهاد هذه في العهد الأول من تاريخ الإمارة، عهد هشام والحكم وعبد الرحمن. فما كاد هشام تستقيم له الأمور وتنعم البلاد في عهده بالهدوء والطمأنينة حتى بدأت القوات الأندلسية تعود إلى سياسة الجهاد، وبدأت سلسلة من الاعتداءات على الإمارات الشمالية خصوصاً إمارات أشتوريش، والمؤرخون العرب يتحدثون عن الصوائف التي أرسلت إلى الأطراف الشمالية الغربية في شبه الجزيرة في 785 م، أرسلت صائفة بقيادة عبيد الله بن عثمان توغلت في وادي الأيبرو وهزمت القوات الإسبانية هزيمة كبرى، كما استطاع جيش آخر في نفس هذه

السنة أن يلتقي بقوات الملك برمودة الأول وأن يهزمها. ولم يكف المسلمون في عهد هشام عن متابعة هذه الحملات على مناطق الحدود بقيادة أعلام القواد والحجاب، فقد عادوا إلى الهجوم في 792 م و 794 م. وأحرز الأمويون في آخر عهد هشام انتصارات ذات شأن لم يشهدها عهد عبد الرحمن الأول؛ فقد هزمت قوات ألفونسو الثاني وتقهقرت صوب الشمال تتبعها قوات العرب إلى جبال أشتوريش. وقد بدأت الإمارة الأموية في عهدها الأول هذا تقف من مملكة الفرنجة موقفًا يختلف تمامًا عما رأيناه من قبل. لم تكتف بسياسة الدفاع إنما عاودت الهجوم وبدأت قوات هشام تغير على منطقة سبتمانيا ومدينة. وكان الفرنجة قد استولوا قبل وفاة عبد الرحمن الأول، والحوليات العربية تحدثت عن هزيمة الحامية الفرنجية وعن هدم الأسوار. وقد واصل القادة العرب الإغارة حتى بلغوا نربونة نفسها بل توغلوا فيها منتهزين فرصة انشغال شربلمان وابنه لويس في إيطاليا، وقد هزمت قوات الفرنجة للمرة الأولى منذ أيام شارل مارتل، وعاد المسلمون إلى قرطبة محملين بالغنائم والأسلاب حتى قيل إن الأمير هشام كان نصيبه من أسرى هذه المعركة وحدها نحوًا من 45 ألفًا. وفي عهد الحكم الأول شغل المسلمون بالفتن الداخلية التي رأيناها في قرطبة وطليطلة وغيرها من متابعة جهود هشام الأولى، وقد استفادت الإمارات المسيحية من هذه الظروف وعاودت من جديد الهجوم في الأطراف الشمالية والشرقية والغربية.

لم ينصرف الأمويون عن الغزو تمامًا وإنما لم يتابعوا الجهاد بنفس القوة والإلحاح الذي رأيناه، أرسلت صوائف في 803 م، وفي 808 م، ولكنها لم تكن بالصورة التي رأيناها في عهد الأمير السابق. على كل حال ما كاد الحكم يفرغ من مشاكله الداخلية تمامًا 816 م حتى استأنف الجهاد على النطاق الواسع المعهود وأعدت حملة تذكرنا بحملة نربونة في عهد هشام، قد أعد جيشًا

كبيراً بقيادة الحاجب عبد الكريم بن مغيث وبعث به إلى أشتوريش، وتوغلت هذه القوات حتى حدود قشتالة والتقت بقوات ألفونسو الثاني فهزمت هزيمة كبرى وتكبدت خسائر كبيرة في الأرواح. فكان هذا النصر من أهم الأعمال الجديدة التي شهدتها معركة الجهاد في عهد الحكم ويبدو أنه كان من القوة بحيث كفت الإمارات المسيحية عن الحركة من بعده تماماً فلم تعاود الظهور طيلة العشر سنوات التي بقيت من حكم الأمير الحكم. وتجدد الصراع بين العرب والفرنجية في عصر الحكم، إذ يبدو أن الإمبراطور شلمان لم ينس ما ناله عند سرقسطة بالأمس، وكان ينتهز فرصة مواتية بعد فراغه من مشروعاته في إيطاليا، كان يتربص فرصة انقسام في الجبهة الإسلامية في إسبانيا ليتدخل تدخلاً ناجحاً. وقد صدق ظنه. ذلك أن الأمير الثار عبد الله بن عبد الرحمن رحل إليه في أكس لا شابل يستحثه على التقدم ويعبده بالمساعدة، أعد شلمان حملته المشهورة على مدينة برشلونة، وانتهت بضياح هذه المدينة وسقوطها في يد الفرنج، وقد اتخذوا منها قاعدة أمامية للتوغل في أراضي الأمويين وأتيح لهم الفرصة لأن ينظموا منطقة الشغور الإسبانية فيما وراء البرانس. وظلت العلاقات بين الأمويين والفرنجية على هذا النحو السيء حتى عقدت الهدنة 807 ميلادية وظلت سارية حتى وفاة شلمان. وقد استأنف الحكم عملياته العسكرية بعد وفاة شلمان فهاجم منطقة الحدود القرنجية وحاول استرداد برشلونة دون جدوى. وقد أصبحت عملية متابعة هذا النضال أمانة في عنق الأمراء بعد الحكم الأول وكان عبد الرحمن الثاني أميناً على هذا التراث فلم يتخل عن واجبه. وما كاد يتولى الحكم حتى بدأت قواته تهاجم مملكة أشتوريش ووجهت الحملات إلى برشلونة ومنطقة الشغور القرنجية. وإذا كانت العمليات العسكرية قد توقفت نحواً من عشر سنوات (828 - 838 م) إلا أن الجهاد استؤنف مرة أخرى في المناطق الشمالية الشرقية والشمالية الغربية

وظل الجهاد متتابعًا طوال حكم هذا الأمير، وعاود الحاجب عبد الكريم بن مغيث قيادة الصوائف وهزمت قوات أشتوريش هزيمة كبرى 825 م حتى لقد أطلق المؤرخون الأندلسيون على هذه الغزوة اسم غزاة النصر. ولم يكتف عبد الرحمن بهذا النصر الذي أحرزه بل هوجمت غاليسيا، ووصلت القوات الإسلامية حتى أسوار قشتالة. وكان عبد الرحمن في بعض الأحيان يقود الجيوش بنفسه كما حدث عام 840 م عندما هاجم منطقة غاليسيا. لم تتوقف الصوائف أبدًا في عهده بل ظل يتابعها حتى وفاته.

شهد عصر عبد الرحمن ظهور خطر جديد هو الخطر النورماندي، فقد ظهر هؤلاء النورمان أو الشماليون المنحدرون من شبه جزيرة أسكندناوة في منتصف القرن التاسع الميلادي وهددوا شواطئ الأندلس كلها ومدنها الساحلية الزاهرة يحملون في طريقهم الدمار والخراب بنفس الصورة التي عرف بها المغول في التاريخ. وقد أوقع هؤلاء الناس الرعب في قلوب الأندلسيين كافة وأهل إشبيلية خاصة وتركوا أثرًا كبيرًا في حياة إسبانيا الإسلامية وفي الأدب ظل باقيًا بعد انقضاء غاراتهم بسنين طويلة. وقد سجل هذه المأساة بعض مؤرخي إسبانيا الإسلامية المعاصرين خصوصًا المؤرخ ابن حيان وقد وصفهم بالشمالين أحيانًا أو بالمجوس. ويبدو أن الخطر لم يكن قاصرًا على سواحل أيبيريا وحدها، وفي 844 م هاجم النورمان سواحل فرنسا المطلة على المحيط الأطلنطي واستولوا على نانت ومصب اللوار ووصلت غاراتهم إلى بورد وطولون. ثم بدأوا يهاجمون السواحل العربية في هذه السنة فهاجموا لشبونة وحاربوا أهلها ثم انسحبوا نحو الجنوب حتى بلغت بهم غاراتهم مدينة إشبيلية وهاجموا المدينة نفسها. وقد فر عنها سكانها وأعملوا فيها السلب والنهب، وقد نشرت غاراتهم المدمرة الرعب في إسبانيا كلها. وقد دعا عبد الرحمن الثاني إلى التجنيد العام وجمعت المقاتلة والفرسان والتحموا بالنورمان وأوقعوا

بهم خسائر فادحة واستردت المدينة. ويبدو أن عنف هذه الغارات دفع عبد الرحمن إلى استصراخ القوى الإسلامية جميعها فراسل الأدارسة والرسّامين. وظلت البلاد تتعرض لغزواتهم حتى 859 م، ولم يخلص البلاد منهم إلا ظهور الأسطول الأموي الجديد الذي اكتسب الخبرة والمهارة خلال هذه المعارك الدموية وبدأت قوته تظهر في حوض البحر الأبيض المتوسط⁽¹⁾. تأكد الاستقلال الأموي في عهد عبد الرحمن الأوسط وتوطدت دعائمه فخابت آمال العباسيين في إخضاع إسبانيا الإسلامية، بل بدأ النفوذ العباسي يتضاءل في المغرب الإسلامي كله خصوصاً بعد ظهور الأدارسة والأغالبة والرسّامين وانشغال مصر بثورات الأقباط على النفوذ العباسي. بل بدأت الخلافة العباسية تشغل بالفتن والأزمات الداخلية الناجمة عن استخدام الترك وظهورهم في سامراء في عصر المعتصم، وانتشر نداء الاستقلال في العالم الإسلامي كله حتى في إيران نفسها بظهور الطاهريين.

نريد أن نعني (بصفة خاصة) بصلات عبد الرحمن بهذه الإمارات التي ظهرت في الغرب الإسلامي والتي سنعرض لها فيما بعد. ويبدو مما كتبه المؤرخون أن علاقات الأمويين بهذه القوى كانت غاية في الفتور وإن كان هذا لا يمنع من التبادل التجاري أو الثقافي. وموقف الأغالبة من الأمويين ليس في حاجة إلى تفسير فقد كان الأغالبة صنائع العباسيين وأصدقائهم، ولم يكن من المعقول أن يمدوا أيديهم إلى بقايا الأمويين في إسبانيا الإسلامية. على كل حال كانت المسافة بعيدة بين ديار الأغالبة وبين إسبانيا الإسلامية.

ومما يؤسف له أن القوتين البحريتين إسبانيا الإسلامية والأغالبة لم تتعاونوا في سبيل بناء صرح سيادة إسلامية بحرية موحدة، إذ لو تم ذلك لتغير

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 107.

مصير الغرب الإسلامي كله . وكانت كل من الإماراتين تبذل نشاطاً بحرياً عظيم الشأن، ولكنهما لم تتعارنا في الميدان البحري، فالأغالبية مثلاً فتحتوا صقلية في 837 وهاجموا جنوب إيطاليا وفتحوا آفاقاً جديدة للحضارة الإسلامية . ووصلت بحرية إسبانيا الإسلامية إلى القمة في عصر عبد الرحمن . وإذا كانت بحرية إسبانيا الإسلامية الرسمية لم تشأ أن تتعاون في هذا الميدان فإن القراصنة الإسبان شعروا بأهمية وحدة الجهود وشاركوا الأغالبية كفاحهم في صقلية وشاركوا مشاركة فعالة في فتح مدينة بالرمو . وقد ظهر القراصنة المسلحون في حوض البحر المتوسط، وظلوا يلعبون دوراً هاماً في هذا الجزء من البحر طوال العصور الوسطى . لكن يبدو أن ثمة علاقات وطيدة نوعاً ما نشأت بين الأمويين وبين الرستميين في الجزائر وتبودلت السفارات واستقبل الأمراء الخوارج في قرطبة استقبالا حافلاً .

يبدو أن الخوارج كانوا في حاجة إلى تأييد إسبانيا الإسلامية لمواجهة ضغط الأغالبية والادارسة . على كل حال لم تنقطع العلاقات الطيبة بين البلدين طوال عصر الإمارة . ولم تقم بين الأمويين وبين الادارسة مودة رغم الاتصال الوثيق بين المغرب الأقصى وإسبانيا الإسلامية، وذلك بسبب الخلاف التقليدي بين الأمويين والهاشميين . وكانت للأمويين سياسة ثابتة في المغرب الأقصى تقضي بتشجيع الإمارات الصغيرة التي في المنطقة الساحلية لتستطيع الصمود في وجه الادارسة مثل إمارة بني صالح أو إمارة برغوطه وإمارة سجلماسة على أطراف الصحراء . وقد أفاد الأمويون من الانقسام الذي وقع في صفوف الادارسة بعد وفاة إدريس الثاني . وكان الأمويون دائماً يشجعون الفرع الحمودي من هذه الأسرة (وسرى أن هذه السياسة كانت تمهيداً للتدخل الأندلسي المباشر في شئون المغرب الأقصى في عصر الخلافة) . وتبودلت العلاقات الدبلوماسية مع القوى العالمية المعاصرة مع الدولة البيزنطية في عهد

الإمبراطور ثيوفيل، إذ يتحدث ابن حيان مؤرخ الأمويين عن بعثة بيزنطية إلى بلاط بني أمية وعن بعثة إسبانيا الإسلامية إلى القسطنطينية. رأينا كيف كانت الوحدة القومية هي سياج إسبانيا الإسلامية في الفترة الأولى من تاريخ الإمارة وكيف رفعت الوحدة القومية كلمة الأمويين ليس في إسبانيا الإسلامية فحسب بل في العالم كله، وأصبحت دولة يخطب ودها المعاصرون ويحسبون لها ألف حساب. وكان انتشار الوحدة القومية في فترة الضعف من تاريخ الإمارة مصدراً ليس للفتن الداخلية التي اجتاحت البلاد وظهور الإمارات المستقلة بل مبرراً لمطامع القوى المسيحية المتربصة بإسبانيا الإسلامية سواء في شمال الجزيرة أو عبر البرانس في بلاد الفرنجة. فقد عاود النورمان غاراتهم المدمرة بين 858م و861م، وامتد عدوانهم حتى المغرب الأقصى وانهزت أستوريش الفرصة في عهد ملكها أرينو الأول للتطلع صوب الجنوب ووصل هذا العدوان إلى القمة في عهد الملك ألفونسو الثالث والفتن الداخلية في البلاد أشد اشتعالاً وأوغلت قواته في أرض الأمويين دون عائق⁽¹⁾. لم تكن سياسته الخارجية حافلة بالأحداث الجسام، اللهم إلا غارات الدانماركيين الذين وجههم إلى إسبانيا الإسلامية بيشارد الأول دوق نرمنديا ليتخلص من عدوانهم وشرهم. وفي مواجهة هؤلاء الغزاة ظهرت قوة الأسطول الذي بناه الخليفة الناصر. وقد استطاع الحكم أن يستخدم هذا الأسطول في حماية شواطئ الخلافة واستمر أسطول إسبانيا الإسلامية العظيم يطوف بسواحل شبه الجزيرة لصد غارات الدانماركيين، وقد تجمع الأسطول في ثغر المرية أعظم القواعد البحرية المطلة على المحيط الأطلنطي، وقد خرج الحكم بنفسه ليشرف على الاستعدادات الدفاعية وقام باستعراض الأسطول الذي كان يتألف من ثلاثمائة بارجة. وقد خرج أسطول إسبانيا الإسلامية بعد ذلك وهاجم سفن هؤلاء المغيرين وقضى

(1) د. حسن أحمد محمود - نفس المرجع ص 109.

عليهم . وقد ظهر الدانيون مرة أخرى تجاه سواحل إسبانيا الإسلامية فحال أسطول إسبانيا الإسلامية بينهم وبين النزول إلى البر . لم يكن الحكم يتردد في أن يطرح العلم جانباً ويرتدي ثوب الجندي المقاتل وفي علاقة الخلافة بالإمارات المسيحية التي أشرنا إليها عند حديثنا عن عبد الرحمن الناصر استمر الحكم يجني ثمار النصر الذي أحرقه أبوه ، فقد كانت هذه الإمارات لا تزال تفتتها عوامل الفرقة ولم تستطع أن تتحد في جبهة واحدة قوية . بل ظل هؤلاء الحكام يتطلعون إلى عاصمة الخلافة يطلبون النصرة والحماية ، فقد اتجه سانشو الأول بن أردونيو محاولاً أن يسترد عرشه مستعيناً بقوات الخلافة وحاول أردنيو الرابع المخلوع أن يسلك نفس الطريق وأن يستعين بقوات الخلافة ليسترد العرش الذي اغتصبه منه الأمير سانشو . وكان الحكم يستغل نزوات هؤلاء الأمراء ومطامعهم ليقر السلام على الحدود ، ولم تكن مساعدته إياهم دون ثمن فقد كان يشترط عليهم التنازل عن بغض القلاع والحصون الواقعة على الحدود . بل سار على سنة أبيه في تفريق شملهم والارتقاء بهم حتى لا تجتمع لهم كلمة ، ولم يكن يتردد في القتال إذا لم يكن منه بد ، فقد خرج في 963م عندما أحس بالخطر يتهدد الحدود الإسلامية ، وقد قاد في هذه السنة صائفة من أعم الصوائف في تاريخ الجهاد .

هوجمت مدينة قشتالة واستولت على بعض الحصون على الحدود وأجبرت بعض الأمراء الإقطاعيين على عقد الصلح كما بعث صائفة أخرى بعد ذلك بخمس سنوات بقيادة غالب بن سعيد . على كل حال استطاعت جيوش الخلافة ذات القوة والنظام والهيبة أن تفرض السلام على الحدود وتناثرت الوفود الأجنبية في قرطبة تشتري السلام أو تخطب ود الخليفة وجاءت سفارات من ألمانيا ومن القسطنطينية . ومن هذا يتبين كيف كان الحكم أميناً على سياسة أبيه لم يفرط فيها قيد شعرة . كان الناصر قبل وفاته قد اتفق

مع ملك ليون على هدم بعض الحصون وتسليم بعضها الآخر إلى المسلمين، فلما مات الناصر رفض ملك النصارى تنفيذ ما وعد به، ومن ناحية أخرى كانت قشتالة تابعة لملك ليون لكن أميرها استقل وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة ثم حدثت تطورات انتهت بتحالف ملوك ليون وقشتالة ونبرة وكونت برشلونة جميعاً ضد المسلمين، ونظر هؤلاء فوجدوا انشغال الحكم بالعلوم والآداب وإيثاره السلم، فأرادوا استغلال هذا في شن الغارات على الأراضي الإسلامية. لكن الحكم واجههم بما ينبغي وأعلن الجهاد في صيف 352 هـ/ 963 م واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة وسار إلى قشتالة واستولى على قلعة «شنت اشتين» المنيعه وفرق قوات ملك قشتالة حتى اضطر إلى طلب الصلح، ثم نكث عهده فعاود المسلمون الهجوم واستولوا على قلاعه الحصينة، ثم أرسل الحكم جيشاً بقيادة حاكم سرقسطة إلى «نبرة» وجاء ملك ليون لنجدته وجرت موقعة أنهزم فيها النصارى واعتصموا بالجبال، ثم سارت القوات الإسلامية إلى قواعد «نبرة» الغربية فاستولت على حصونها، كذلك سار الحكم وشقة شمالاً على رأس قوات نحو أراضي نفس المملكة واستولى على كل ما فيها من سلاح وحصون، واستغرق ذلك كله عامي 352 - 353 هـ/ 963 - 964 م، بالإضافة إلى حملات قام بها المسلمون فيما تلا ذلك من سنوات وتمكنت قوات قرطبة من الاستيلاء على قلاع كثيرة وأرغمتها على التسليم والاعتراف بسيادة قرطبة، وبدأت سفارات هذه الدولة تتوافد على العاصمة الإسلامية في إسبانيا. أضحت إسبانيا الإسلامية كعبة تأتي إليها ملوك النصرانية وتلتبس ودها. بدأ ذلك عام 355 هـ/ 966 م واستمر بعده، وكان أول الوافدين أمير جليقية وأمير أشتورياس، ثم وفدت رسل ملك نبرة، وفي عام 360 هـ/ 971 م جاءت سفارة من أمير برشلونة تطلب تجديد الصداقة، ثم جاءت عمة ملك ليون، وغير هؤلاء، كما تلقى الحكم رسائل

من قبصر بيزنطة، ومن إمبراطور ألمانيا وغيرهما، كل ذلك جعل فندت يبدل - العالم الإسباني الكبير - يقول: «وصلت الخلافة في إسبانيا الإسلامية في ذلك العصر إلى أوج روعتها وبسطت سيادتها السلمية على سائر إسبانيا وكفلت بذلك السكينة العامة». لكن إسبانيا الإسلامية تعرضت لخطر النورمان الذين ظهرت سفنهم من جديد عام 355 هـ في ميناء الشاطئ الغربي فقد جاءوا في 28 مركباً، ونزلوا جنوب شرقي «أشبونة» وعاثوا فساداً ثم رحلوا على المدينة نفسها وخربوا. واجتمع المسلمون لقتالهم وجرت موقعة قُتل فيها كثير من الطرفين. ثم جاء أسطول إشبيلية من نهر الوادي الكبير إلى البرتغال، والتقى بسفن الأعداء عند «شلب»، وحطم عدداً من سفنهم وقتل بعضهم، وأنقذ أسرى المسلمين، بعد ذلك ارتد العدو عن المياه، وأمر الحكم بحشد بعض سفن الأسطول عند قرطبة في نهر الوادي الكبير، وأن يكون ترتيبها على شكل مركب النورمان خشية تسرب الغزاة إلى العاصمة عن طريق النهر كما فعلوا في غزوتهم الأولى. وفي (360 هـ = 971 م) بدأت مراكب النورمان تهدد شواطئ ولاية الغرب، واستعد المسلمون للقائهم، لكن هؤلاء ارتدوا من تلقاء أنفسهم دون معارك بسبب تفوق المسلمين⁽¹⁾. وتجلى حرص الحكم على سياسة أبيه الخارجية في موضوع العلاقات المغربية الأندلسية. ففي أواخر أيام عبد الرحمن الناصر كاد يقضي على الجهود الكبيرة التي بذلها في محاربة الكتلة الزناتية وإخضاع بقايا الأدارسة. فقد استطاع جوهر قائد المعز أن يصل إلى ميدان المغرب مرة أخرى مستخرقاً المغرب الأوسط ومجتاحاً السهل الساحلي حتى أدرك المحيط الأطلسي، وإذا بمكاسب عبد الرحمن تكاد كلها أن تبخر فلم يبق في إسبانيا الإسلامية من سلطان إلى على منطقة طنجة وسبتة. وما كاد الحكم يسايح بالخلافة حتى تطورت الأمور تطوراً لم يكن في

(1) د. عبد الله جمال الدين - المرجع السابق ص 63.

الحسبان، فقد بدأ الخطر الفاطمي يترك أرض المغرب كلها، فقد نجحت جهود المعز في القضاء على الإخشيديين وفتحت مصر وانتقلت خبرة جوهر إلى مبيدين الشام. وأصبح النزاع في المغرب - في الحقيقة - بين الكتلة القبلية ذاتها. كل كتلة منها تسندها كلتا الخلافتين، الكتلة الصنهاجية يؤيدها الفاطميون، والقوة الزناتية يساندها الأمويون. وكان من الممكن أن يظل الحكم قانعاً بمجرد النصر على هاتين القوتين المتنازعتين لولا أن الكتلة الصنهاجية أحرزت نصراً كبيراً جداً وهزم الزناتية هزيمة كبيرة وبدأ الصنهاجيون يهددون المغرب الأقصى مرة أخرى. فلم يجد الحكم بدءاً من التدخل المباشر وعبرت قواته المضيق وأوقفت تقدم الصنهاجيين، ودعى للخليفة الحكم على منابر البلاد. ولكن هذه القوات ما لبثت أن هزمت أمام بقايا الإدارة فقرر الحكم أن يرسل نجدة أخرى بقيادة القائد الشهير غالب، وعبرت القوات الأندلسية المضيق مرة أخرى وأوقعت ببقايا الإدارة وانتشر نفوذ إسبانيا الإسلامية على المغرب الأقصى مرة أخرى.

وأثبت الحكم للعالم أنه كفء للأحداث قدير على مواجهتها⁽¹⁾.

(1) د. حسن أحمد محمود - المرجع السابق ص 109.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
7	مقدمة: رسالة الإسلام والسلام
11	التفكير السياسي في إسبانيا الإسلامية
15	واجبات الخليفة حسب ابن حزم
33	نظام الحكم والإدارة
48	الوزارة
50	الجيش والأسطول
52	السياسة الداخلية
91	الإدارة في غرناطة بني الأحمر
114	العلاقات الخارجية
136	حملة شارلمان
146	السياسة الخارجية

التفكير السياسي في إسبانيا الإسلامية - واجبات الخليفة حسب ابن
حزم - نظام الحكم والإدارة - الوزارة - الجيش والأسطول - السياسة
الداخلية - الإدارة في غرناطة بني الأحمر - العلاقات الخارجية -
حملة شرلمان - السياسة الخارجية .



البروفيسور
محمد حسن العيدروس

- من مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة .
- رئيس مركز العيدروس للدراسات والاستشارات ومجموعة العيدروس التجارية
- حاصل على الليسانس من لبنان والمحاضر في التطورات السياسية في الإمارات العربية
- 1971 - 1974 والدكتوراه من مصر عام 1983 في العلاقات العربية الأيرانية 1921 - 1971
- عمل في دائرة الاستيطان والمشريات بالحكومة المحلية في إمارة أبو ظبي 1970 - 1973 ثم مديرا للعلاقات الثقافية
- بالحكومة الاتحادية لدولة الإمارات العربية المتحدة 1979 - 1984 ، ثم جامعة الإمارات العربية المتحدة 1984 - 1993
- وعام بالتدريس في بكلية زايد العسكرية في مدينة العين وكذلك بكلية الطفرة الجوية في أبو ظبي ، كما شارك في
- دورة تدريب الدبلوماسيين في وزارة الخارجية بدولة الإمارات العربية المتحدة ، ثم في جامعة الكويت
- في جامعة روتردام الإسلامية بهولندا 2000 - 2002 ، ثم في القوات المسلحة لدولة الإمارات العربية المتحدة
- 2002 - 2006 : الأمين العام للجنة الإمارات للتاريخ العسكري ، ثم رئيس مؤسسة استشارات فيا للدراسات
- والتحاري في السويد من عام 2007 حتى الآن - وهو عضو في العديد من الجمعيات العلمية الإقليمية
- الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب منذ عام 1991 وحتى الآن ورئيس تحرير مجلة دراسات روتردام
- صدر له أكثر من اثني عشر كتابا وأكثر من أربعين بحثا معظمها في الخليج العربي والدراسات
- نائب رئيس جمعية الناشئين الإماراتيين .



العصر الأندلسي
تاريخ و حضارة الأندلس
النظم الإدارية في إسبانيا الإسلامية

